شوقى عبد الحميد يحيى

الممنــوع من الســفــر

مجموعة قصصية



الممنوع من السفر
مجموعة قصصية

شوقى عبد الحميد يحيى
لوحة الغـلاف : للفنان جمال عبد الناصر

الطبعة العربية الأولى : يناير ١٩٩٨

رقم الإيداع : ٩٨/٢٤٩٨
الترقيم الدولى : I.S.B.N -x 056 -291- 977



السلسلة الأدبية

الجمع والصف الإلكترونى
مركز الحضارة العربية
تنفيذ :عبير كمال خضر

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات
تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

إهــــداء

إلى والـــــدى رمــــز الحنــــان والعطـــــاء

إلى والـــــدتى رمــــز الأمـــــان والوفـــــاء

قطـــرة من محـــيط عطـــائهما

شـــــوقى

الممنوع من السفر



(سألوا القمر : كيف تضئ وأنت صخرة صماء ، وكتلة من ضباب ؟! .. فلم يحرهم جواب)

ثمة شباك غير مرئية قد حوطتنى ، فلا فكاك ، انغرست نظراتها فى عينى فانخلعت روابط قلبى، وراح يرتجف كطير ذبيح ، تيبست عضلاتى وتسمرت حركاتى .

على الرغم من عشقى للجمال فى كل أنثى ، إلا أن ما انغرس فى القلب ليس بعشق .. إنه إرتباط ، جاذبية أقوى من أن تقاوم ، شئ ما يذيبنى ويحلل كيانى ، شئ ثقيل الوقع، قوى التأثير، ينصب فى نفسى وفى جسمى ، يسرى بطيئاً دواراً فى العروق، فيزيح خدرا قد ران عليها مُدداً قد طالت بطول العمر ،.. إن ما يحدث لا يمكن أن يكون ابن اللحظة ، لقد نبت فى سحيق الأيام ، ربما قبل أن أولد ، توقفت حركة الزمن أمام إشعاع أنثوى متسلط ، رغم الملامح الدقيقة البريئة فى وجهها .. فى استدارته ونضارته ضوء القمر.. المفروش على أرض الشوراع الطينية فى قريتنا، فى سواد شعرها .. سمرة النيل المتدفق فى مساقى الغيطان بعد التشقق واللهفة . فى هدوء ملامحها صمت أبو الهول فى وقاره الأبدى . لايبدو على وجهها أى أثرللمساحيق . ضوء طبيعى فى عينيها يشع حميمية متدفقة لتربط وجودى . إرتعشت شفتها السفلى فى لا إرادية بعد دهر من العناق والتلاقى . تصاعدت فى وجودى أمواج التوق الصخّابة . فكرت فى انتزاع وردة من أمامها ، أقدمها اليها بدلاً من جواز السفر . وجدتنى أفكر فى أن تكون ملهمة لقصتى الجديدة . من اسمها ورسمها تتفجر ينابيع الحب

وتتفتح أزهار الحياة . لا بد أن يكون اسمها فواحاً بالنغم مثلما رسمها ضاغط بالمستعذب من الألم .

* * *

تجسد لها فى نومها ، رأته رأى العين ، نبض ووجود بشرى ، شاب مكتمل الوسامة ، ينضح جسده بفورة الشباب ، أطال النظر فى عينيها فامتد حديث دون حديث ، ابتسم لها ، وجدت نفسها منجذبة اليه ، استسلمت فى خضوع انثوى طفولى بين ذراعيه.. راح يداعب خصلات شعرها المنسابة على كتفيها . سرى دفء متناغم ، وخدر فى عروقها ، همس بالكلمة التى طالما تمنت سماعها ، شعرت بذوبان وجودها ، إحتوتها الدنيا بذراعيه ، تنبهت إلى كثير الأحلام فى يقظتها ، لم تستطع أن تفتح عينها على آخرها ، فقد كان النور يغمر الحجرة ، أخبرتها أمها أن الضوء قد غمر الكون .

* * *

همسة حانية خدشت طرف وعى : الباسبور . همست بأعذب موسيقى دغدغت وجودى .. تنبهت أن المسافة بين يدى وبينها قد امتدت عشرات الأميال .

وما أن لامست جوازى حتى شعرت بوجودى قد انسحب اليها ، لم اشأ أن أمزق تلك الخيوط اللامرئية ،أيكون القدر قد ساقها تجربة عملية؟! ربما ! إلا أن بحثا عن دليل جديد يمكن أن يفيد فى كلمتى بالمؤتمر ، لم يكن بالحسبان ، إلا أن الحب دائما قدر يصيب الإنسان على غير توقع، تلك حالة

أعيشها وزاد جديد أحمله، كآخر ما أحمل من أشيائى إلى المؤتمر ، إنبثاق الجذور فى أرضها الطبيعية ، " الحب كطاقة فاعلة فى الأدب العربى" موضوع كلمتى فى المؤتمر .وهل هناك طاقة أكبر من تلك التى تحركنى الآن.

* * *

(سألوا الشمس : كيف تبعثين الدفء فى الشتاء وأنت قطعة من لهيب خلف السحاب ؟!... فلم تحرهم جواب) .

لا بد أن الجالس إلى جوارها قد لاحظ شيئاً أو قرأ شيئاً على صفحة وجهى ، إكتشفت تحديقه فىّ وعلامات التساؤل ترتسم على وجهه ، منقار صقر حاد المخالب تتأهب للإنقضاض على فرخ حمام أخضر.. يتعثر فى خطوه ، محركات الطائرات فى الخارج تمزق سكون الهواء، وتحرك كوامن الشجن والوله ، رغم ما قد أصبح يربطنى بالأرض ، ليتنى أستطيع اصطحابها معى فأستطيع التغلب على الجاذبية الأرضية حتى لو لم يكن هناك طائرات . فلنذهب سيرا على الأقدام ، بل سعيا ، كم تكون المسافة قريبة إن نحن أخذناها جرياً .. ظل ابتسامة خجولة تترقرق على ثغرها، تزيد اشتعال الوهج فى الجوانح . تنبهت أن مسار يدى ليس باتجاهها ، داريت خجلا وأسرعت بالجواز نحوها .

* * *

لم يكن شريف الا مجرد زميل جديد على القسم ، وكان عليها أن تحيطه ببعض جوانب العمل التى عليه أن يتولاها نيابة عنها، بعد أن إرتقت

درجة جديدة فى سلمها ، شعرت أنه كان يطيل النظر فى عينيها ، عيناه كانتا تقولان ما حاولت مقاومته . فى البداية قاومت ذلك الذى يساورها نحو ما تقوله عيناه . وعندما استراحت لذلك الإحساس ، ابتسمت أعماقها دون أن تشعره بشئ . شعرت فى ذلك اليوم أنها كانت لا تزال تعيش الحلم، وراحت تعقد المقارنات بين الشخصين حتى تطابقا .

* * *

راحت تقلب صفحات الباسبور بأناملها الرقيقة، وكأنها تقلب صفحات وجودى . تتوقف عند الاسم . تمنيت أن أقول أن هذا إسمى ، وهذا عنوانى وأنى ذاهب إلى مؤتمر .. تداعب أصابعها الرقيقة أزرار الكمبيوتر أمامها ، تستطلع الشاشة أمامها بجوار مجموعة الورود الطبيعية الفواحة ، تقرأ شيئاً عليه ، تعاود النظر فى الجواز ، من جديد تضغط على أزرار الكمبيوتر ، من جديد تنظر إلى الشاشة ، و تغير ما طرأ على وجهها ، تستدعى الجالس إلى جوارها ، قلق كدبيب النمل يداعب أطراف وجودى يضغط أزرار الكمبيوتر القابع أمامها ، يطالع الشاشة ، يهمس اليها ببعض الكلمات ، تتجه إلىّ من جديد ، تبدلت المعانى فى النظرات ، غراب ينعق على رأس شجرة ، فتهرع أمى لتحوط على أفراخها الخضر ، إكتسى وجهها الملائكى مسحة قلق مشوب بالحزن الشفيف ، شعرت بترددها قبل أن تهمس : أسبق أن كانت لك قضية ما ؟ إندلع البرق فى سماء شتوى عاصف على ليل القرية . أى نوع من القضايا تعنى ؟!

– قضية ! ! لم يسبق لى حتى دخول قسم البوليس .. إلا .. لإستخراج البطاقة وإستخراج جواز السفر .

- ألك نشاط محظور ؟

- ولا حتى غير محظور .. ليس لى نشاط إلا عملى .

- إذن .. لماذا .. ؟

- ما الحكاية ؟ أهناك شئ ؟

- أنا آسفة .. أنت ممنوع من السفر .

ربما أكثر من مائة طائرة قد بدأت ادارة محركاتها دفعة واحدة .. صخب المحركات يطن فى تجاويف عقلى ويرعش أفكارى ، لم أتبين على وجة الدقة ماذا قالت . أسترجع كلماتها : ماذا .. ماذا قُلت؟

- أنت ممنوع من السفر .

خوف مطمور تحت ركام الأيام ينفجر من القلب فتهب أدخنة تعمى النظر. شع الدفء فى جحر الحية فهبت مشرعة ذنبها فى كل ما ينبض ، فتصاعدت مرارة الصبار على ثدى أمى يوم أرادت لى الفطام فنضح صداً وحنيناً . تناقضت كل الأسماء مع مدلولاتها ، لم يعد أى حسن فى الحسن، ولا شع عدل فى فعل عادل . تفككت أوصال الجسد وأنحلت روابطه ، أصرت الروح على الهروب بعيداً غير عابئة بتشبثاتى ، إندفع قطار العمر وطفح رشح الأيام .

- لابد أن هناك خطأ ما .

لست موقنا إن كنت قد قلت ذلك أم أن صوتى المنحاش دوماً عن الخروج قد مارس معى لعبته . عدلت من وضع الشاشة تجاهى مشيرة إلى الإسم عليه .

- نعم .. هو اسمى .. نصر عادل حسن .. مصرى الجنسية .. منوفى الميلاد ، ولكن لا بد أن شيئاً ما خطأ .. ربما تشابه فى الأسماء لم يسبق لى أن اتهمت فى أى قضية ، وليس لى أى قضية منظورة فى المحاكم . لم يسبق لى الإشتراك فى أى مظاهرة . أيكون أحد الوشاة قد زج بإسمى فى شئ ؟!

لم يكن الحصول على موافقة الجريدة بالاشتراك فى المؤتمر بالشئ الهين معركة شرسة تلك التى خرجت منها بالموافقة . قدمت أوراقى وشفعت سوابق أعمالى ، بحث وسهر وتعب ، فقط أحببت عملى ، عشقت الصحافة ، رضيتها لى زوجة وأسرة ، آمنت أن الحب عطاء ، والعمل بالحب أفضل عطاء ، آمنت أن الحب يصنع المعجزات ،رأيت الحب طريق الإجادة ، ولما كان الآخرون يؤدون الواجب ، أيقنت أن هناك إختلافا ، لم اسع لإثبات أحقيتى ، ولم تكن الموافقة مفاجأة لى ، رغم أنها كانت مفأجاة للآخرين .. لكن .. لماذا ممنوع من السفر ؟ !

رغم أنى كنت مقتنعا بما كانت تقوم من أجله مظاهرات الطلبة ، إلا أنى لم أكن أرى أن المظاهرات هى الطريقة المثلى ، ورغم بعض الإنتقادات التى كنت أضمنها بعض كتاباتى بالجريدة ، إلا أنى لم أكن أصل إلى درجة الخطر .

اذن .. فلماذا ممنوع من السفر ؟!!

طلبت منى الإنتظار لعرض الأمر على المسئولين .

***

ولم تكن تدرى أنه يتسرب إلى وجودها بهذه النعومة القاسية . حاولت

أن تهرب من أحاسيسها فكانت تستبين أنه ينغمس إلى قاع وجودها . آلمها أنها لم تعد تتنفس إلا برئتيه ولا تشعر إلا بوجوده ، فأصبح حضوره ضاغطاً وغيابه قاهراً . إلا أنها لم تستسلم لفكرة البدء بالبوح ، عليها فقط أن تمنحه الفرصة . أن تضئ الشمعة وتدعه يخطو ، وعندها لن تمانع ولن تقاوم ، فقط عليه أن يبدأ .

* * *

(سألوا الأرض : كيف تنبت عليك الزهور والخضرة وأنت حبلى باللهيب تحت التراب ؟ .. فلم تحرهم جواب) .

الأمر لا يمكن إلا أن يكون مجرد تشابه فى الأسماء ، ولكن ما الوسيلة لإثبات ذلك الآن . الآن فقط .. إنها أول مرة أحلق فيها فى الأعالى . لم يسبق لى ركوب طائرة من أى نوع . الإنفتاح على العالم الخارجى . الإحتكاك بالآخرين، عرض وجهة نظرى فى أحب الموضوعات إلى نفسى كيف يمكن أن ينهار الحلم فى اللحظة الأخيرة ؟

إقلاع الطائرة لم يعد بينى وبينه إلا لحظات ، لماذا يا أبى أخترت لى هذا الإسم ؟ الآن فقط أشعر أنه لم يكن اسما بقدر ما كان إثما، سامحك الله يا أبى . أى نصر كنت تعنيه والهزيمة والإنسحاق يزعزعان كيانى .

- كان يحب ركوب التيار ..

قالت أمى وقد اعتصرتها المرارة :

- كان كل شئ يسمى كذلك عندما أتيت . شارع النصر. ميدان النصر . بحيرة النصر . شركة النصر ، وكان يطمح فى الكثير ، كان ينظر إلى أعلى

من قـامتـه . ولـم يكن يفكر إلا فى ذاته ، وكم كـان يعـتصـرنى الألـم وأنت تصرخ من الجـوع بعد أن أرغمنى على وضع الصبـار على ثديى عندما أراد فطامك ولم تتجاوز بعد الشهور . فلم يكن يريد لثدى أن يترهل .

لم أقل لأمى أنى أعلم ذلك يا أمى وأشعر بثقله الضاغط على أنفاسى.. يوم أن فكر فى ملاعـبتى ، لم يجعل من نفـسه حماراً أمتطيه مثلمـا يفعل الآباء ، بل تخيلنى أنا الحمار وهم بإمتطائى بلحمه المترهل . يومها صرخت يا أمى ، خفت أن يقتلنى ثقله . ورغم ذلك أحـببته ، ألم يكن أبى ، إلا تلك اللطمة على وجـهى - لا زلت أشعر بوقـعها - يوم أن بكيت ليـأخذنى فى سفرة إلى القاهرة. كنت أريد أن أركب القطار ، كنت أريد أن أرى القاهرة.

طنين المحركات يحطم رأسى، عشرات الطائرات تحلق فوق البناية.

* * *

قبل ذلك لم تكن تحب النوم ، بل كانت تتـهرب منه . لا تبحث عنه إلا إن بحث عنها ، كـثيراً مـا كانت تستـيقظ مفزوعـة أو متألمة أو باكـية ، وكم فزعت أمها كى توقـظها من نومها بعد أن يكون صوت صـراخها أو بكائها قد جاوز الحجـرة . إلا أن الأمر إختلف . أصبح النوم موعد الـلقاء . موعد الأمل الذى طالما انتظرته ، استـلقت على سريرها بـاحثة عنه . وكـم تحولت أحلامـها حـقيـقة حـتى أصبـحت تنتظر فى الحقيـقـة ما قـد رأته فى المنام . تداخلت عندها العوالم حتى لم تعد تميـز أيهما الذى يحدث .. الحلم .. أم الحقيقـة ، سألتها أمهـا يوما عما إذا كانت تسيـر وهى نائمة .. أم نائمة وهى تسير ؟ انخلع قلبها لرنين التليفون المفاجئ . إنتشلها من ذلك القرار الغارقة

فيه . ترددت فى رفع السماعة ، لم تسارع أمها فى إلتقاط التليفون كما اعتادت . ترددت أصداء أنات التليفون . أمها لا ترد . فى خدر لا إرادى رفعت سماعة التليفون .لم تنطق بكلمة سمعت صوته على الجانب الآخر . لم تصدق أنه هو. اعتذر لإضطراره الإتصال ، ولكن الأمر عاجل . أخبرها أن إعتذارا لا بد أن يقدمه لها لعدم تمكنه من الحضور إلى العمل صباح الغد . تحتم عليه الذهاب لإنهاء بعض إجراءات السفر لمرافقة زوجته. لا تذكر أنها نطقت شيئاً، ولم تتبين أحقيقة وضعت السماعة فى مكانها أم لا .

* * *

أصوات محركات الطائرات يتزايد فى مظاهرة صاخبة والوقت يمر بطيئاً .. بطيئاً .

أجهدت نفسها فى الوقوف على الحد الفاصل بين الحقيقة والحلم .. أكان حلماً ما حدث أم أنها حقيقة . كل ما تذكره أنها هذه المرة لم تبك ولم تصرخ ، فقط شعرت أن دمعتين تدحرجتا إلى أسفل حتى لامست شفتها العليا وأن لها مذاق الملح .

يونيو ١٩٩٥

الشجـــرة

آثار الخبر عديد المشاعر وأجج شجونى .. رحت أفكر فى الخروج من العزلة .. الوحدة تطبق على أنفاسى وعديد المشاعر يوقعنى فى حيرة القلق ويدفعنى لفعل شئ ، ولا زال الحلم يطاردنى، ولم أتردد كثيراً فى الدخول إلى مدينة الملاهى ، لم يكن فى نيتى ولا فى تخطيطى أين أذهب ، ربما وجدتها أنسب الأجواء التى يمكن أن تخرجنى من حالة الكآبة التى تعذبنى كلما بدا الحلم عصياً . راح الصغير يدفع الهواء فى بلونته الكبيرة ، بينما برز وجه عم أبو العلا .. رغم بعد المسافة التى قد تتجاوز الأربعين عاماً ، لم يزل يهشنا من أسفل شجرة التوت ، حتى فى أيام الشتاء لم يكن بالشجرة من ثمار ، فلم تكن الثمار هى ما يخاف عليه .. لقد كانت الشجرة هى كل عمره ، تخيلنا أنه يمكن إقتطاع جزء من جسده ولا يقترب أحد منها . أو حتى ينظر اليها ، فما بالك لو استظل أحد بظلها فى لهيب الشمس الحارقة، ورغم معرفتنا بذلك ، لم نكن نكف عن العبث بها ، خاصة بعد أن يكون التعب قد أنهكنا من المذاكرة على جسر الترعة ولم يكن من شجرة غيرها يُستَظل بها فى الزمام كله . فسرعان ما نتسلق فروعها كالقرود .. قد نستعيد بعض ما ذاكرناه ، وربما نُروِّح عن أنفسنا ببعض الأحاديث البعيدة عن المذاكرة ، وما كنا نلمحه من بعيد وراء نقلة السباخ على حماره الزاعق دوماً ، حتى نقذف بأنفسنا إلى حيث لا ندرى . وكنا كالقرود ، سرعان ما نستجمع أنفسنا ونطلق لسيقاننا العنان ونتباعد فى كل اتجاه ، يملأنا الرعب والخوف من خيرزانته الطويلة ، أو من طوبة يقذفنا بها عندما يشعر أنه لا يستطيع اللحاق بنا ، غير أن محاولاته الفاشلة دوماً فى الإمساك بنا ، لم

تكن لتجعله يكف عن الجرى وراءنا ، ولم تكن لتجعلنا نكف عن اللجوء إلى الشجرة . خاصة فى شهر ابريل ، عندما كان بالشجرة ثمر ، ونحن على أبواب الإمتحانات . ورغم محاولات عم أبو العلا ، فقد كانت شجرة التوت هى المكان المحبب إلى قلب كل منا ، خاصة بعد أن كان كل منا قد رسم قلبه عليها ونفذ السهم منه ليقطر دماً لا تشعر به الحبيبة المنقوش اسمها على طرف السهم .

فى عديد مرات الحلم ، وبينما كنت أواصل تسلق فروع الشجرة ، وبينما كانت يدى قد أوشكت على الوصول إلى حبات التوت .. سمعت صرخة عم أبو العلا من بعيد ، ودائما كنت أقذف بنفسى على الأرض فأستيقظ .. مرة على صرخة مؤلمة بعد أن تكون ساقى قد انكسرت ، ومرة بعد أن أكون قد إنغرسْتُ فى القناة الصغيرة بجوارها .. فأستغيث من الغرق .

وبينما يتعالى الصخب فى مدينة الملاهى ، تصدر صرخة من الفتاة الخائفة عندما ترتفع المراجيح التى كالساقية .. يقترب منها عم أبو العلا بعطف أبوى ويربت على كتفها . ورغم كل ما يفعله معنا ، فقد كان عطوفاً علينا إذا ما قابلناه بعيداً عن الشجرة .. حقيقة كان أحياناً يعاتبنا ، لكنه سرعان ما يتناسى ويعود كما هو عم أبو العلا بعيداً عن الشجرة ، وكم حاولت التعرف منه – فى جلسات على نورج القمح التى كان يدعونى إليها حتى يزيد الثقل على النورج ليساعد فى سرعة درس القمح – على سر التحول الحاد فى شخصيته، إلا أنه كان دائما يحجم عن الكلام عن الشجرة وسرها الخفى المخبوء داخل أعماقه بعيداً عن أفكارنا الصغيرة ،

وراح كل منا يتخيل الأسباب التى تجعله يخاف عليها كل هذا الخوف ، حتى بدا كما لو كان شخصان هو لا شخص واحد . فمن يقول أنه ورثها عن جدوده ويعتبرها من موروثات الجدود .. لذا فهو يخاف عليها . ومن يرى أنه يخبئ فيها أسياداً يلتقى بهم داخل أعضائها .. فهو يخاف علينا منهم أو يخاف عليهم منا . ومن يقول أن أمه هى التى غرستها فرعاً ورعاها حتى كبرت . لذا فهو يخاف على غرس أمه ، وعديد الإجتهادات التى كان يتفتق عنها تفكيرنا المحدود ، لكن أحدها لم يكن يرقى إلى درجة الحقيقة حتى بات سرا يحير ألبابنا . ورغم كل شئ .. فقد أحببت عم أبو العلا لما كان يحكيه لى على النورج من حكايات لم يكن بينها أى علاقة بالشجرة .

ويواصل الصغير دفع الهواء إلى البلونة الكبيرة .. ويتصادم آخرون بالسيارات الكهربائية فى عنف ، ويصعد عم أبو العلا إلى المرجيحة الساقية إلى جوار الفتاة المفزوعة ذات الرداء القصير .. ويرتفع القادوس الجالس فيه إلى أعلى فأشعر بالخوف عليه ، ويدفعنى القلق إلى إشعال سيجارة ويُخْرِج دخانها مخبوءات الزمن المتراكمة، فيزداد السعال بعد أن أكون قد أخذت نفساً عميقاً من سيجارة شوش الذرة التى كنا نصنعها أسفل الشجرة بعد الغروب ، وكنت أود أن أثبت للآخرين أنى لست أقل منهم ، وتدور مرجيحة الساقية بقواديسها المتعددة فى نقلات متوقفة حتى يصعد آخرون ، وعم أبو العلا قد وضع يده على كتف الفتاة المفزوعة ذات الرداء القصير فى محاولة لتهدئتها وإيناسها . ويتعالى صراخ زوجته عندما يسقط من فوق فروع الشجرة التى كان يقلم بعض زوائدها .. وينزف الدم بغزارة من رأسه التى سقطت على حجر أسفل الشجرة .. ولم تفلح كميات البن فى إيقاف

التزيف .. فنذهب جميعاً وراءه إلى الوحده الصحية غير أن كميات الدم النازف كانت قد غيبته عن الوعى . ويطلب طبيب الوحدة ضرورة نقل دم إليه سريعاً. وعقدت الدهشة وجوه الجميع عندما روأنى أمد لهم ذراعى ليأخذوا منه ما يحتاجونه بعد أن تطابقت فصيلتانا معا . وبينما يسحبون الدم من ذراعى ، أشعر كأنى بلونه يسحبون منها الهواء ويدفعون به إلى البلونة الأخرى على السرير المجاور ، وتتضخم صورة عم أبو العلا، ويزداد طولاً، بينما راحت الأشياء تتراقص من حولى، ولم أعد أعى ما يدور ، ويصعد قادوس المرجحية الحاملة للفتاة المفزوعة إلى قمتها وتبدأ فى إزدياد السرعة مطوحة قواديسها فى حركة أفقية إلى جانب حركتها الرأسية . بينما رحنا نجمع حبات التوت المتساقطة بعد أن قذفنا الفروع بالطوب فى إحدى نوبات الحلم . أستيقظ مفزوعاً من الألم النازف فى رأسى بعد أن أصابتنى طوبة عم أبو العلا .. ولم أكن أدرى أن الصغير لم يزل ينفخ الهواء فى البلونة الكبيرة التى انفجرت فجأة وأحدثت هذا الصوت الذى هزنى رغم ضجيج مدينة الملاهى والصيحات المتعالية. ورحت أنحت اسم المحبوبة بحجر على جزع الشجرة ، ولم يكن حمار عم أبو العلا قد أرسل نهيقه المعتاد من بعيد والذى كان إنذار التحذيرلنا- فلم أتبين قدومه، فراح يرسل اللعنات من بعيد حتى فزعت وهممت بالجرى ، غير أن قدمى تعثرت فسقطت على الأرض، وقبل أن أنهض كان قد لحق بى ، وبدوت كالقزم أمامه فتملكنى ، وبكوع ذراعه هوى على قمة رأسى ، أظلمت الدنيا من حولى ، ودارت الأشياء فى غير إتزان . ولم أتبين إلا ورأيتهم يضعون البصلة المكسورة على أنفى، وكانت الفتاة ذات الرداء القصير لم تزل فى

قادوسها المرجيحى وحيلة تصـرخ فى خوف . وساعة أن جاءنى الخبر ، لم أتبين على وجه التحـديد ما أعانيه .. أهو الفرح بالـطريق الجديد للقرية ، أم الحزن على إقتلاع الشجرة فى طريقه .

نوفمبر ١٩٩٤

الصــــوت

على الرغم من أنها لم تكن المرة الأولى، أو حتى الأولى بعد الألف يأتيني ذلك الصوت، إلا أنه هذه المرة كان واضح المعالم قوى النبرات حاد الحواف، ولم يكن ذلك الصمت الصخاب ولا تلك الكوكبة من حولى لتمنع وصوله، منذ ما يقرب من ثلاثين عاما، يأتيني وحيدا .. هذه المرة عرف طريقه إلى ذرات وجودى، رغما عنهم، وبدأت التعرف على ما يقوله.

كانت ملامحه هى الوحيدة التى استطعت تمييزها من بينهم، رغم صعوبة المسألة فقد كانوا جميعا متشابهين، ربما لأنه الوحيد - تقريبا - الذى كان يتحدث، وربما كان صوته هو الذى مكننى من التعرف عليه، بينما تشابه الباقون، حتى لم أعد أميز الرجل منهم من المرأة، فقد غطى اللون الأبيض كل المساحة المتاحة للرؤية، وأنا مستلق على وجهى حليق نصف الرأس، وكانت الأجزاء السفلية منهم هى التى تقع فى دائرة الرؤية، كما أتاح لى الوضع رؤية بعض تلك الأجهزة العديدة المعقدة فوق رأسى وجانب من السرير، خاصة ذلك الضوء المستفز من فوقى والذى كان - ربما - هو الذى يولد تلك الخيالات المرسومة على الشاشة الجانبية المتحركة، عاكسة ما كان يموج فى سقف الجمجمة من أمواج هادرة وتحركات مناوشة قد عجزتُ عن تفسيرها .

عندما بدأ الصوت نداءه من أعماق الغيب، لم تكن حواف حروفه واضحة المعالم، فالتبس علىَّ الأمر، فلم أعره إهتماما، ظل يتردد على فترات متفاوته فلم يكن يترك تلك الذبذبات ولا تلك الرعشة على أطراف وجودى .

خصلة من شعر نسائي بانت من تحت الغطاء الأبيض، عندما انحنت نحوى لتعدل من وضع رأسى .. كانت كغصن من الرياحين وسط أرض قاحلة صماء لا تقول شيئا .. فواحة الأحاسيس والمشاعر، تعرفت عليها على الفور .. ربما يكون قد سرى تيار أكمل الدائرة الكهربائية ، فأضاءت ظلام الأعماق وكشفت مخبوء الزمن .. ربما يكون به سر مألوف قد وقفت عليه بالأحساس من قبل قد فتح لدى أبواب الاستقبال والتيقظ .. تلك الخصلة ، رأيتها من قبل .. هذا الشعر أعرفه .. لقد كان أول ما بان منها، أول ما قدمت إلى من مكنون كنوزها أتكون هى (هى) ؟! ولكن كيف ؟! أعرف حقيقة أنها تهوى التمريض ، لكننى - أيضا - أعرف حقيقة أنها لم تعمل يوما بالتمريض، فما الذى يكون قد أتى بها إلى هنا ؟! أتكون قد أتت لتطمئن على ما أشيع ؟! ولكن كيف أشيع ؟! لقد حرصت طويلا ألا يعرف أحد شيئا طوال هذه السنين .. حتى أنا - فى البداية - لم أكن أعرف شيئا أو أشعر بشئ كما لم أذكر شيئا عن ذلك الصوت الدافع المراوغ .

وعندما قررت الحضور ، لم يكن كثيرون يعلمون بأمر المجئ .. هى بالتحديد من حرصت على ألا تعرف شيئا، كما أن الأمر لم يتحدد بعد على وجه اليقين .. كل ما هنالك أنه - هو - استشعر شيئا واستنتج أشياء وترك التحديد للتحاليل والأشعات .

وكان الصوت يأتى فى عمق الليل عندما تتصارع بنات الجن من حولى .. يريدون إلتهامى .. ولم تكن هى من بنات الجن رغم ما كانت تقوم به من أعمال تفوق أعمال الجن - فتشعل فى ذرات وجودى نار اللوعة والاشتياق. كانت تمنحنى عصير الوجد كقطرات العين .. كانت تخفى أكثر

مما تظهر ، فكانت توحي أكثر مما تبوح فتجعلني أغرد وأنشد أحلى ما قلت من كلمات ، أبحث في دواوين الشعر عن رسالة أبثها نفسي ونبضت بها أمامها عروقي ، أبحث عن كل نغمة يحملها الهواء عصيرا من كياني وتفتحت بها مسامي فأصبح الكون فسيحا .

خصلة شعر بانت، جعلته ينظر إليها بعينين ثاقبتين يشع منهما غضب جارح .. أتراه ينظر هذه النظرة من أجل الخصلة أم من أجل الموقف ؟ يا لنفسي المتشبثة بأهداب الأحلام .. ألم يكن ذلك يشعل في نفسي عديد مرارات الأسى والغيرة ؟ والآن لم يعد شئ يهم .. فلماذا يعنيني ؟ لقد كانت تقول وأصدقها .. لأني أريد أن أصدقها وكنت أذوب توقا وشعرا فأتناسى وأناجي فيها الحياة وأتشبث فأنشد :

تعالى ولا تخافي

ولا تتركي فترة للتجافي

تعالى نحطم الإغلال

ولا نعيش دوما في الظلال

تعالى نحيل الظلمة نورا

فغدا نطيل رقدة القبور

تعالى نلحق ما هو آت

ويكفينا من العمر ما ضاع وفات

تعالى أسقيك شهد شوقي

وأبثك حبى وتوقى
تعالى واسقنى ماءك العذب
وامنحينى من محاسنك الشهد
تعالى نتلاشى فى واحد
تكون اللحظة فيه خير شاهد

* * *

فى عمق الليل عندما كانوا يوقظونى أبكى بصوت مسموع .. كان الصوت يحاول خنقى فكانوا يخلصونى منه .. وفى إصرار وتحد كان يقول:

" موعدنا فى النصف الثانى من الربع الرابع " كنت أجلس طوال اليوم أحاول فك طلاسم الرسالة .. لكننى فى النهاية .. كنت أبتسم وأسعى لمقابلتها .. أدفن رأسى فى عمق صدرها فيشع حنينا وحنانا .

تنحنى قليلاً لتعدل من وضع رأسى ،كى يواجه الربع الأيسر الخلفى.. تلك الشاشة الناطقة بالصور المتحركة .. ببن بعض من صدرها المرمرى الفواح بالرغبة الصارخ بالنداء ، تتجه أنظارهم جميعا إلى تلك الشاشة .. يترجم (هو) تلك الصور فى كلمات ، تبدأ بعض معالمها فى الوصول .. تنفك رموز اللغة .. "لم يزل فى البداية" ، تتركز عينى على ذلك الجزء المرمرى.. تشتعل الرغبة ويتوقد الحنين .. أقاوم ضغطا دافعا فى يدى حتى لا تمتد فيحدث مالا تُحمد عقباه..تشع أضواء الداخل حرارة تنبعث فى الأشياء فيتحرك كل ساكن..يشتعل الحنين إليها..تتردد أصداء المناجاة:

(يا مهجة الروح .. قد تكون الكلمة لمسة .. واللمسة همسة .. واللحظة جناحان .. اللمسة والهمسة) . أقاوم رغبة فى الإعتدال .. يعاود الصوت الرنين .. يخمد المتحرك فى نبضى وتسكن الرغبة فى عمق المستحيل.

رائحة الأجهزة من حولى تخنق أنفاسى ، أريد أن أتقيأ ، لم أحب تلك الرائحة فى يوم من الأيام ، أغمض عينى كأن الرائحة تنفذ من خلالها ويتفتح عالم صخاب .. تتدافع أمواج البحر فى انسيابية ونعومة .. توافق مؤخرا على أن نلتقى .. أيام عديدة لم تكن تعطى الموافقة الكاملة ..

وأيضا لم تكن تعطى الممانعة الكاملة .. تحب دائماً أن تترك الباب - مواربا - تكشف عن مقدمة الصدر .. لكنها ... لا تمنحنى امتلاكه .. يزداد الحريق المتأجج فى الضلوع، وتغرد أزهار الربيع على أقبية العمر فى كل الضلوع .. أتمسك بسحر اللحظة .. استحلفها بقوة اللحظة .. أئن تحت ضغط اللحظة .. أحلق فى سماواتى .. فتوقظنى من ثباتى وتنادينى : أهبط إلى الأرض .. إلى الأرض دائما نحن مشدودون ! تتقارب مرات تردده .. تتعالى ذبذباته ويملأ الأفق حولى .. تتضح نبراته .. (فى النصف الثانى من العقد الرابع موعدنا .. موعدنا .. موعدنا ..)

يحتدم النقاش بين مجموعتهم .. تنصت (هى) إليهم فى ترقب.. يجذبنى الصوت فى مغناطيسية لا تقاوم .. كان فى الماضى يدفعنى . الآن أشعر به يجذبنى ..أستبين بعض الكلمات من جديد .. (لا بد من التدخل السريع قبل أن ينتشر .. إنه فى الربع الأيسر من مؤخرة الرأس ولا زال صغيرا..) أسمعها تحدث نفسها .. (اللعنة على الخبث والخبائث) أشعر بمرارة فى صوتها .. لكنه .. أفتح عينى .. ينسحبون إلى الخارج .. أشعر أن

روحى تنسحب معهم .. صمت ثقيل يجثم على الصدر .. لم يبق غيرها .. تخلع عن نفسها البالطو الأبيض .. أعـتدل فى جلستى .. أجلس على حافة السرير محملقا وشاردا.. تخلع غـطاء الرأس .. إنها (هى) .. تبتسم غير أن فى ابتسامـتها مرارة دفينة .. تعـيد ترتيب الأشياء .. تلملم بقـايا الأجهزة .. أصبح الصوت أكثر وضوحا .. تغلق الباب .. وأكثر حدة .. تقترب منى .. وأعمق ذبذبة .. أشم رائحـة الأجهزة .. ينكشف الصـدر كثيـرا .. تعاودنى نظرته إليها .. دبيب النمل يسرى فى الأوصال ويصبح قبض الريح كل شئ .. تتـشبث بشـفتـى.. ترن الكلمات .. فى الربع الأيـسر .. تسـتسلم فـوق صـدرى .. فى العـقـد الرابع .. تكشف عن نفـسـهـا .. يخـمـد النبض فى العروق .. فى العقد الرابع.. يسكن كل متحـرك .. لم تعد بى رغبة .. عمر طال وأشيـاء ضاعت فـيها الحـياة .. أدفعـها بيـدى اليمنى .. أشـدها بيدى اليسرى .. اسـتلقى على ظهرى .. أغمض عينى .. أشـعر بطعم شفتـيها .. أشعر بالرغبة فى الماء .. أسترخى .. تسكن كل الرؤيا، يخمد كل متحرك .. يخمد .... يخمد .. يخمد ....

أكتوبر ١٩٩٦

المتتاليـة .. الحوليـة

(١)

تفتحت بعض أوراق الزهور ، وتطايرت بعض روائح الورود ، تلهث خلف قرص الشمس قبل أن ينحدر ، لتمنع سقوطه فى البحر ذى الشط الواحد ، إصفر قرص الشمس خابيا يمنع دمعة وداع المغيب ... تشبثت نسمات أصيل ربيعية ببعض ذرات البحر ، ترشها على وجه الأرض والمخلوقات ، تغسل بها كدر أيام وليال طال بها المسير .. تشبثت قدماى برمل الشاطئ الخالى إلا من وجودى الفردى .. يأتى الناس صيفاً ، وآتيه ربيعاً .. أبحث عن وجود كنته بين ذرات الرمال والماء .. عن ذلك العالم الصخاب تحت سطحه الوديع المستسلم .. عن ذلك السكون الراكد فوق أنفاس الليالى الحبلى ، يعجبنى مرأى الشمس الهاربة .. يخلبنى نصفها الغارق فى المياه ، ونصفها الحزين عليه .. أتشبث ببقايا حلم كان بالأمس .. وبعض من حلم ادخرته للغد . أتعلق بخيوط الشمس الغاربة .. علها تحول بينى وبين البرق الخاطف فى عمق الليل .. الجاذب نحو اللاشئ ، بقوة لا تقاوم .

(٢)

هروباً من جو ، أغسطس الخانق ، خرجت أتنسم ظل نسمة رطبة على ترعة القرية فى آخر الشهر العربى .. إنهزم القمر مقهوراً خلف أستار الأرض المتعالية الجبال والزروع . لا ظل لضوء .. بعض النجيمات تطل على إستحياء .. تفكر فى أن تبعث بصيصاً من ضوء ، غير أن حرارة الجو

خنقت بعض ما تفكر فيه . يدفعنى الجو الخانق للتفكير فى إلقاء نفسى فى مياه الترعة ، لكنى لا أجيد العوم . أبحث عن حقل مروى أو قناة بها بعض الماء فألقى نفسى فيها ، أتبين أن الترعة لم يأن أوانها إلا اليوم ... ولم يشرع أحد بعد فى السقيا .. أبحث عن بعض الماء العذب أبلل ريقى الجاف مثل الحطب .. أتحسس موضعاً لقدمى على طريق الترعة الترابى المحاط بالزراعات . أتسمع خروشة بين أوراق الغيطان .. يخنقنى الحر والعطش فأفكر فى التخلص مما يسترنى .. انبثقت الشرارة من الجنوب الغربى للعمر .. فانتبهت متيقظاً .. تتالى إنبثاقها على مرمى الأيام . غير أن ظهورها قد أصبح أكثر من ذى قبل بها قوة مغناطيسية تجذب وجودى .. قوة تشدنى فأجدنى منجذبا نحو اللاشئ .

يخرج الميتون من عمق الأرض .. أحياء يسيرون عليها . شيئاً ما لم يتغير فيهم .. كأنهم بيننا لم يزالوا .. أكدت أمى أن زيارة الموتى للأحياء ، تعنى أن واحداً سينضم اليهم . ترى من يكون سواى ؟ ينبثق الواحد ضوءاً .. يتسلط الضوء وجوداً .. لا يلبث أن يتجسد فردا ، أعرفه تمام المعرفة .. إنه سمير عمر .. من ذا الذى أعاده إلى الآن ؟ هو بطوله الفارع وكتفيه العريضين وسمرته الواضحة .. لم يكن بينى وبينه عميق صلة . حقيقة أعرفه منذ فترة .. غير أن العلاقة لم تصل فى يوم من الأيام حد الصداقة .. يقترب نحوى .. أعرف أنه بين الأموات منذ نحو عام .. يقترب منى .. يغمرنى احساس بالرهبة والخوف .. يقترب .. يشلنى احساس بالرعب .. أجرى .. ويجرى ورائى . أتعثر فى لاشئ .. يمسك بى .. يتملكنى الذعر .. يعضنى فى ظهرى .. أصرخ . يزداد عنفاً .. أستغيث .. يكاد اللحم يتمزق

بين أسنانه .. أصرخ .. أتألم .. ثم أبكى .. توقظنى أمى .. أشعر بالألم ينخر فى عظامى ، وبأسنانه بين ثنايا لحمى .

(٣)

إكتسحت الزوابع كميات الأتربة المتكاسلة على أرض المدينة ، فإنتفضت متطايرة .. ملأت شقوق الحيطان والشبابيك والأعين .. تساقطت أوراق الأشجار ، وتجردت فروعها .. تلّوت بعض الوريقات وأعقاب السجائر .. فتطايرت على مسافات متباينة ، صانعة دوامات متراقصة كالطير المذبوح قبل الاستسلام . تشبعت ذرات الهواء بعبق خريفى فإصفر الجو وإمتلأت النفس بإحساس قابض . غيم الوجود وأعطى إحساساً بالليل قبل أن يأتى الليل .. أشعر بالوخم فى وجودى ورغبة فى النوم ، دونما حاجة فى عينى .. أشعر برغبة فى الغطاء ، ثم لا ألبث أن أزيحه نافراً مستنفراً تحت وطأة احساس بالحرارة .. أدخل فى اللانوم واللايقظة .. يلمع البرق الضوء الخاطف على الجهات المختلفة .. ينزرع الضوء وجوداً .. يستحيل الوجود إنساناً .. ينبثق عمى على جانب من عمق الأيام .. ينبثق خالى على الجانب الآخر .. يتملكنى إحساس بالدهشة والخوف .. أتساءل ما الذى أتى بهما .. أطلب منهما الخروج ومغادرتى .. دعونى وحدى .. أريد أن أنام .. يبرز من بينهم كلب ضخم .. يغمرنى أحساس بالفزع .. يقترب الكلب منى .. أشد الغطاء على كامل جسدى .. الكلب يحاول نزع الغطاء .. يحاول افتراسى .. استغيث .. أصرخ .. وفى مرارة ورعب أبكى .. توقظنى زوجتى .. أشعر بتكسيرفى جسدى .. أشعر بأسنانه بين ثنايا لحمى .

(٤)

تكاثفت السحب دون أن تنذر بهطول أمطار ، فانسحب القمر متوارياً خلف الأفق . جثمت أحاسيس مقبضة على الصدر ، دون أن تنذر ببصيص انفراجة .. تمتد الصحراء .. ألعن السفر إلى المدن الساحلية عبر الطرق الصحراوية .. تتكاثف السحب الشتوية فتكابر الشمس معاندة قبل المغيب . يغمرنى أحساس بضيق التنفس .. تنسحب الحياة هاربة خلف غيوم المجهول .. تنبثق الشرارة من أقصى الغرب فى ومضة وهاجة جاذبة .. انجذب اليه فى لا إرادية مستسلمة .. رمال الصحراء تصدر صفيراً مخيفاً .. أشعر بحركة خلف بعض الصخور المتبعثرة ، فيملأنى أحساس بالرهبة والمجهول . أتلفت حولى .. الطريق خال إلا منى .. أزيد سرعة السيارة فتسابق الريح .. يومض ضوء السيارة على أسفلت الطريق فيومض بعض الماء .. تزداد الرياح .. تصنع السحب المنخفضة سقفاً كاتما .. يتوقف موتور السيارة .. تبطئ من سرعتها .. تزحف آخذة فى الوقوف .. ينبعث الضوء الوهاج أخاذا .. يتحول الضوء وجوداً .. ينبثق الوجود عن شخص أعرفه .. إنه .. على الطرابيشى .. كيف أنساه ولم يرحل إلا من شهور .. شد إنتباهى شخص آخر .. على اليمين .. يبزغ ثالث خلف السيارة .. رابع أمامها .. قد لا أعرفهم تماماً .. لكنى متيقن من رحيلهم جميعاً .. يتملكنى احساس بالخوف .. يمد أحدهم يده نحو باب السيارة .. يشلنى الرعب الناشب أظفاره .. يجذبنى إلى خارج السيارة .. أتلفت فى هلع .. أتساءل عما يريدون .. لا أحد يجيب .. يحملوننى على أيديهم .. ينخلع القلب من

الرعب .. يسيرون بى نحو حفرة عميقة متأكد من أنها أعدت لهذا .. يدخلوننى .. اصرخ .. يصبح نصفى الأسفل داخل الحفرة .. أرتعد.. يشلنى الرعب .. أشعر بذرات التراب تنهال على جسدى المنزلق إلى الداخل .. أصرخ .. أصرخ .. أصرخ ..

ديسمبر ١٩٩٦

المفتـــــاح

(فى زمن الحلم الأول .. كنت أستطيع أن أفعل كل ما كان ممنوعاً بالنهار .. ورغم أن الليل كان يعنى الإظلام والأشباح والخوف ..فقد كنت ..لا أحب النهار).

وبعد أن كان اليأس قد ناء بكلكله على عظام صدرى ، فإختنقت منى الأنفاس ، وتمدد الليل فافترش الصمت الأشياء ، وأدركت أننى الواقف منفرداً ، لمحت أسراب الزمن الهارب تتسلل بين مسام الجسم ، إشتعلت نار الغربة ، وعلى ألسنة لهيبها المتراقص .. تمايلت عرائس الوحدة ، وصفقت وصيفات الخيال ، فتداخلت خيوط الليل فى نسج النهار ، وتشابكت خيوط النهار مع أطراف الليل فلم يعد يبين أيهما الإبهار .. وأيهما الإظلام .

تقدمت نحوى .. تسمرت أعضائى وعلت الحمرة وجهى ،حاولت البحث عن أحد بجوارى عله يكون المقصود ، اشارت إلىّ أن .. تقدم .. فتحت عينى مثلما أفعل عندما يضاء النور فجأة وسط الظلام ، وحاولت أن أصدق ما آراه ، اعادت الإشارة إلىّ أن.. تقدم ، دون أن تبدى حراكا، وجدتنى مدفوعاً بفعل الشوق واللهفة مثلما تندفع المياه فى مجراها نحو حفرة تعترض طريقها ، خرجت ابتسامتها حبل سرى لامرئى إلتف حول عنقى ، يجرنى ، إستدارت إلى الجانب الآخر وراحت تخطو خطوات وئيدة .. أستطيع أن أشعر بإنفراجة إبتسامة على شفتيها .. دون أن آراها .. تخطو .. تجرنى ، إنفجرت إبتسامتها فأصبحت قهقهة تخلخل ذرات الهواء من حولى .. أعارتنى إلتفاتة .. قرأت آيات الإصرار فى عينيها .. عادت تجرنى ..أسرعت الخطو .. تجرنى .. إنكفأت على وجهى .. لم تتوقف ..

شعرت بتضاريس الأرض على وجهى ولم تتوقف .. عند مساحة من الظل على شاطئ النهر .. توقفت .. تحاملت ونهضت وأنا ألهث .. فراحت تلعق الغبار والآلام وتضع من لسانها بلسماً شافياً يرطب مكان الكدمات ويمسح بقايا الدفعات الساخنة على التقيحات .. ورحت أبكى دون أن أشعر بالخجل .

كم من الوقت مر دون حديث .. إنزلقت أصابعها تمسح على وجهى فإشتعلت نيران التوق الوهاجة فى أجزائى وإستيقظت شياطين الشوق الصخابة فى أعضائى ، فتحت ذراعى وإحتضنت الفراغ .. أشاحت بيدها وهمست :

- ليس لهذا جئت بك إلى هنا .

لم يخرج منى السؤال ، لكنه إرتسم على ملامحى الباهتة فأجابت:

- إنما جئت بك إلى هنا كى أرشدك إلى ما تبحث عنه .

ومرة أخرى ..لم يخرج منى السؤال ،لكنها أجابت .

- أليس مفتاح الصندوق هو ما تبحث عنه ؟!

أنَّت جدتى فى رقدتها وتململت أمى فى فراشها ودفعانى للتقدم ..

أكدت جدتى لأمى - عندما ولدت - ألا تقترب من الصندوق أو تحاول فتحه إلا بعد أن أكون قد كبرت - دون أن تخبرها بما فيه - وعندما كبرت ، أكدت أمى على ألا أقترب من الصندوق إلا بعد أن أتزوج - دون أن أعلم ما فيه - ولأول مرة أحسست بالكلمات تتسرب من بين شفتى :

- المفتاح ، لقد نسيت كم من الزمن إنقضى وأنا أبحث عنه حتى كدت أظن أننى لن أصل اليه إلا إن وصلت إلى صاحبته .

خلخلت ضحكتها السكون وأيقظت سبات النجوم فتجمعت دهشة وإقتربت تتساءل ، وإسترقت السمع لكلماتها :-

- وبما يجديك المفتاح إذا ما وصلت أنت اليها ؟ ألا تعلم انها رحلت من زمن لم يعد بالقليل ؟

وعندما سلمتنى أمى الصندوق عن جدتى . أعطتنى معه المفتاح .. استطيع أن أجزم بذلك .. غير أنى لست أدرى اين وضعته ، فتدافع الشوق والمرارة من حلقى :

- بل أعلم .. وربما كان هذا سر عذاباتى المدفونة بعد أن أصابنى الانهاك من طول البحث وأعيانى اليأس والرجاء ..

- وهاأنذا جئت أعطيك إياه بشرط أن تتبعنى دون أن تتكلم بشئ ، انبثق الأمل من جديد ، وبلهفة التوق ولوعة الشوق أو مات برأسى عنيفا بالموافقة، وقاومت خوفا فطرياً يتسلل من بين منحنيات الزمن ليتساقط على طين الأرض مقاوما خيوط الشوق السحرى ، نسجت شباكها حولى فأعمى نورها الوهاج عينى وأغلق وطؤها فمى وتسللت من بين مسامى آخر بقاياى.

لمست أصابعها أطرافى وجذبتنى إلى حيث تسير ، وفى ظل شجرة عجوز خبأت ضوء القمر تحت عباءتها أكملت غسلى . ثم قادتنى حتى خضنا فى ماء النهر قليلاً .. وهناك كانت تقف باخرة من عدة أدوار تلألات

أضواؤها فى عـرس بحرى أخاذ شـدنى إلى عالم الاحـلام فى رحلة نهرية إسطورية ، وعندما وصلناها ، كانت المياه قد غطت أفخاذنا ، وما أن خطونا بداخلهـا حتى تعالت مـوسيـقى باليه (الجـمال النائم) - رغم أنهـا كانت خالية إلا من كلينا - وبدأت تتهادى على صفحة النهر .

كم من الوقت مـر علينا .. ربما دهر .. ربما يوم .. وربمـا لحظة .. فـقـد كنت مشغـولاً بقراءة صفحـة وجهها الناطق بالغـامض من المعانى ، وكنت أبحث عن عدد خيـوط الضوء التى يمكن أن يكونه جسـدها .. أذابنى سحر اللحظة ، فأنـسانى إحسـاسى بالزمن ولم أنتبه إلا وهـى تأمرنى أن أتبعـها ، تنبهت إلى أن الـباخرة كـانت قد توقفت عند جـزيرة تحوطهـا المياه من كل جانب ، وكـانت شجرة صفـصاف تقف وحيدة فـيها وقد أرخت شـعورها فصنعـت شبه خـيمة تـتخللها خـيوط من ضـوء القمر . وقـفت بى عندها وقالت-:

- أسفل أحد جذور هذه الشجرة يرقد المفتاح .

إنفجرت دفـعات متسـارعة من الشوق والترقب فكدت أصـيح فرحاً ، ولكنى تذكرت الشرط ، تراقص القلب وإحتبست بدايات صيحة كانت تود الانعتاق .. فتركتها تكمل :

- لكن هناك طقوس يـجب أن تتم قبل أن تحدد أى الجـذور يرقد تحتـها المفتاح ، فعندما ينتصف القمر صفحة السماء ، سيكون الجذر عند منتصف ظلى .. فعليك أن تحـفر الأرض عنده .. ولكن حـذار أن يلمس التراب أى جزء منى .. وحذار أن تحاول التقاط الثمار وحذار ..

وهممت أن أقول كفى حذار وسمعا وطاعة لكل المحاذير ، غير أننى تذكرت من جديد ما سبق من تحذير . أشرت بكلتا يدى بالموافقة التامة .

إنقطع خيط الكلام ، وإنتصبت واقفة فاتحة ما بين قدميها فارتسم مثلث ساحر الحسن من الضوء والظل.وتصلبت كتمثال شمعى بلا حراك.
راح قرص القمر المكتمل يزحف نحو منتصف السماء ، فتسلطت أشعته على جسدها وراح يشف ما عليها فتبدى ما كان مخبوءاً من سحر تحت الغطاء ، وجدتنى متصلبا أنا أيضا شاخص البصر فاغر الفم مبهورا بسحر اللؤلؤ الشفاف تتخلله شعيرات دموية فاتحة اللون فى حركة دائبة بلا توقف.كدت أرفع يدى كعابد فى محراب إلهة الجمال..وراحت الأنفاس المتسارعة المتضاربة تتلو ترانيم الشوق والوله الصامت الصاخب.

ربما ساعة .. ربما يوم .. ربما دهر .. فقد تجمع الزمن فى اللحظة وإنفجرت براكين العمر فى اللحظة . غير أن نظرة آمرة غرستها فى عينى .. دون كلام ..فتبينت إنتصاف قرص القمر صفحة السماء، بحثت عن ظلها ، ولم يكن سوى بين القدمين المفتوحين قليلاً .. وحاذراً رحت أحفر الأرض عند المنتصف نبتت لأصابعى أظافر أخرى .. وتتعمق الحفرة شيئاً فشيئاً بينما القمر يواصل زحفه .. أسابق الزمن قبل أن يغيب القمر ، لكن جذر الشجرة لا يبين ، رفعت رأسى إلى أعلى متوسلاً ومتسائلاً ، هالنى التمثال المرمرى الشفاف ببياضه الأملس الوهاج..وددت لو أتذوق ملمسه،غير أن شيئاً أقرب للسواد قد بان على قمة صدرها ، فبان شديد الوضوح كنقطة حبر على صفحة بيضاء ، هل كان موجوداً من قبل ، أم نبت اللحظة فقط .. كل ما أدرية أنه زادها حسنا على حسن فأصبح حسنها فوق ما أطيق

واحتمل . فركت عينى كى أستوضح الصورة جلياً . تبينت أنها شامة مستطيلة سوداء .. مدببة من أحد طرفيها عريضة من الطرف الآخر . سرت رعشة فى يدى فلامست قدمها .. إنتفضت عروقى وصدمنى تيار كهربى قذفنى على ظهرى متصلبا ، بينما إزداد وهج ضوء القمر رغم زحفه نحو المغيب . فإمتزج جسدها به حتى صارت نسيجاً من شعاعه .. غير أنى عدت وتاكدت من إنفصالهما عندما أخذت فى الذوبان شيئاً فشيئاً وكأنها تتحول من الصلب إلى السائل .. فراحت تتناقص ويعلو سطح مياه النهر .. تتناقص ويعلو سطح النهر، حتى كانت مياه النهر قد غطت كل أرض الجزيرة فلم يعد موجودا منها غير تلك الشامة تطفو فوق المياه ، حاولت أن أسبح .. مددت يدى .. تحاملت حتى أمسكت بها فى يدى . أطبقت عليها بكل ما أطيق وأحتمل ، أسبح وأقاوم . أسبح وأقاوم . حتى أرتميت على شط النهر .

فتحت يدى لا تعرف على ذلك الشئ .. غير أن ضوء القمر كان قد انزوى خلف الأفق فلم استطع تحديد ما بيدى ، تحسسته بكل الشوق والانهاك ، ولم تدم حيرتى طويلاً ، فقد أحسست بملمسه شكل المفتاح تناسيت انهاكى ، وشعرت بقوة هائلة تحركنى - رغم الليل .

(فى يقظة منتصف العمر .. عندما أصبح حلم النهار عفياً .. وحلم الليل خفياً .. أصبحت أحب النهار) .

فى عتمة ليل الحجرة .. تحسست زوجتى البلل على ملابسى .. ولم أحرها جوابًا على تساؤلاتها وإندهاشها ، وتصلبت يدى على المفتاح ، ولما رأتنى لا أستطيع الإجابة ، توقفت عن التساؤل . تملكتنى رجفة فألقت على

بالغطاء ، حاولت أن أضئ النور لكنها رفضت .. لانه يؤذى عينيها .. واستدرت إلى الجانب الآخر ، حاولت أن أرجئ الموضوع إلى الصباح ، حاولت أن أضمها ، نبتت الأشواك فى كل السرير وكان ملمسة خشنا ، بحثث عن إتساق التمثال المرمرى النابض ، تذكرت يدى القابضة - لم تزل - على المفتاح إنتفضت واقفاً وأشعلت النور رغما عنها ، سألتها عن الصندوق .

وفى زخم النوم سألتنى هى الأخرى :-

- أى صندوق ؟!

- صندوق جدتى .. أيوجد هناك صناديق أخرى .

تفتحت كل آمال الوصول وإشتعلت من جديد لحظات الترقب والتوجس والتوحش .

وفى محاولة لإستعادة النوم وفى لا مبالاة وإستهانة قالت :

- صندوق جدتك .. ألا زلت تذكره ؟!

- وفى حسم وشوق أكدت : -

- وهل كنت نسيته .. لقد وجدت المفتاح .. بعد كل هذه السنين استطيع الآن أن أفتح الصندوق .

وفى نبرة جمعت بين الدهشة والغيظ والتشفى قالت :

- لقد كسرت قفله من زمن ..ولم أجد به غير أشياء بالية لاقيمة لها،فألقيت به وبها إلى القمامة .. ألم تشعر بذلك من زمن ؟! توقفت كل

المجـرات عن دورانها وإنحـبس الصـوت فى حلقى ونوقـفت حركـة الليل والنهـار بينمـا أردت أن أقـول لا لم أشـعـر .. غـيـر أننى لم أقـو على قولها .. و..

(وفى عتمة آخر العمر.. عندما أصبح حلم النهار قصياً ..وحلم الليل عصياً .. أصبحت .. لا أحب الليل.. ولا أحب النهار..) .

مايو ١٩٩٦

الفيل .. لم يعد صديقى



أعجبتني اللعبة حتى خلت أنني من الممكن أن أكون مؤلفا للأطفال، وقد حاولت ذلك بالفعل في عدة محاولات..وعندما تقدمت بها إلى دور النشر.. باءت كلها بالفشل، فرحت أمارس الهواية، فأعيد نسج الحكايات، وأعتني بتداخل الخيوط، ثم الوصول إلى نهاية مريحة حتى تبدو الحكاية محكمة من جانب وتسلم الطفل إلى أيدي الملائكة تحنو عليه وتسلمه بدورها إلى النوم اللذيذ من جانب آخر.فكنت في كل يوم قبل أن ينام أحمد أجلس إلى جواره في السرير واحكي ما تجود به القريحة. .

لم يكن الخيال دائما يسعفني أمام إلحاحه المستمر ، فكان عليَّ أن أعيد وأكرر ما سبق أن حكيته ، نبهتني زوجتي إلى أن حكايات الجن والعفاريت يمكن أن تصيب الولد بالذعر ثم إنها تجعله يتشبث بها كثيرا، خاصة عندما يرغب في النوم-وهذا بالطبع يفوت عليَّ الكثير من الفرص - فأصبحت أتحاشى حكايات الجن والعفاريت . تنقلت بين عوالم الطيور والحيوانات . تعلمت نسج خيوط المغامرات وتدبيج حبكتها حتى أتفادى أسئلته المحيرة التي كثيرا ما تُوقعني في مأزق المنطقية ،وكنت أظنه لا يلحظها .

ولم تكن حكاية الفيل الصغير هي الوحيدة التي حكيتها عن عالم الحيوان في الغابة - رغم ما يحدث لي في كل مرة ، إلا أنه كلما تعللت بالتعب أو عدم وجود حكاية جديدة ، هروبا من العواقب غير المحمودة يطلب حكايتها من جديد وفي كل مرة يتقبلها وكأني أحكيها للمرة الأولى. وبالطبع هناك في كل مرة إضافة جديدة ، وربما نسيان بعض التفاصيل .. وقد يكون ذلك ما يجعلها - بالنسبة له - تكتسب جدتها وقد كنت أظنه -

أيضا - لا ينتبه لذلك ، خاصة أنها لم تكن لتؤثر على الخيوط الأساسية والتى مؤداها أن فيلا صغيرا كان قد وقع فى أسر أحد الصيادين ، فتولاه بالرعاية والعناية واحتفظ به لنفسه دون أن يعرضه للبيع كباقى صيده ، فقد نشأت صداقة بينهما وانزرع الحب فى قلب الصياد حتى أصبح كما لو كان ابنه ، راح يوليه بكل ما لذ وطاب من الطعام المحبب ويداعبه كلما شبع وارتوى وأصبح أليفا لطيفا حتى أتقن بعض الحركات التى تجعل الصياد (يكركر) ضاحكا . وأخذ الفيل يكبر وتكبر معه (زلومته) فكان إذا شبع وارتوى يلفها حول جسد الصياد الذى يفرح بذلك ويمرح فيزيد له العطاء، والرعاية والحنان ، خاصة أنه يعلم أن الفيلة لا تأكل اللحوم فلم يكن يخيفه ذلك . ولكن الدنيا لا تسير دائما على وتيرة واحدة ، فقد تعذر على الصياد الرزق ، ولم تعد الغابة لتسمح له بالمزيد من الصيد فتعطل رزقه وكسدت تجارته وتدهورت حالته ، ولم يعد يكفى ما يقدمه للفيل الذى لم يعد صغيرا ، وكلما راودت الصياد فكرة التخلص منه بالبيع ، لم تكن نفسه تطاوعه، غير أن سبعة أيام مضت ولم يستطع الصياد تقديم أى طعام للفيل فدخل عليه يحدثه بحاله ويشكو له ما فعل به زمانه ، وحاول أن يلاطفه ويداعبه كما كان يحاول .. طلب من الفيل أن يلف (زلومته) حوله كما كان يفعل ، اندفع الفيل ولف (زلومته) حول جسد الصياد الذى انفرجت أساريره وانزاح عنه بعض الهم ، إذ فهم أن الفيل سمع شكايته ورق لحالته وأراد أن ينسيه بلوته ، غير أن الفيل رفع الصياد إلى أعلى امتداد زلومته وهوى بالصياد إلى الأرض واندفع إليه يريد الوقوف عليه فتدحرج الصياد بعيدا وتماسك حتى وقف مندهشا خائفا ، غير أنه لم يستطع لساعده حراكا ولا للآلام إسكاتا . وقف الفيل ينظر إلى الصياد الذى لم يستطع تفسير

نظرات عينيه وما إذا كانت تعبر عن الحسرة والآلام ، أم عن التشفى والانتقام ، ولما فكر جديا فى بيعه أدرك أنه لا يمكنه ذلك حيث أنهم لا يحتاجون إلى الأفيال الكبيرة ، فلم تعد تصلح للتدريب .

وغالبا ما كنت أصل إلى هذا حتى يكون أحمد قد راح فى النعاس فلا أستطيع الوصول به إلى النهاية السعيدة التى تجعل أحلامه سعيدة ، وأكون أنا الآخر قد بدأت فى التثاؤب ، فأخشى على نفسى من تحذيرات زوجتى التى كان قد فاض بها الكيل من طول ما أيقظتنى بعد أن تكرر الحال . إلا أنه منذ آخر مرة لا زلت أشعر - حتى هذه اللحظة - أننى لم أزل أهوى من السماء السابعة ولم أصل إلى الأرض بعد . حيث فرد النوم بساطه السحرى فتهادى على صفحة الليل مشيعا فى الكيان خدرا وتنميلا. خلعت زوجتى - فى ليل عرسها - طرحتها كاشفة عن كل مكنون ومدفون .. قدمت إلى صندوق والدتها عن جدتها المطرز بفصوص من فضة وياقوت ومرجان ، قالت إن هذا الصندوق الأثرى توارثته الجدة عن الجدة .. كل تقدمه إلى زوجها فى ليل عرسها كى تجمع فيه النقوط. شدنى لمعان الفصوص رغم مرور الزمن ، رحت أحك الفص بعد الفص فانفتح الصندوق . انطلقت منه أبخرة متدافعة كثيفة انخلع منها سقف الحجرة تشكلت الأبخرة فاستبانت عن مارد عملاق .. بانت السماء عن هلال يتشكل وبعض النجيمات .. شعرت أننى - وزوجتى - قد أصبحنا فى الخلاء، المارد يحمل سهما فضيا بطول الحجرة .. بدوت كقزم تحت أرجله . فتح فمه ببعض الكلمات :

كى تستطيع العبور فى سلام لا بد أن تجيب عن ثلاثة أسئلة كل سؤال بطريق ..

تخلصت من الفزع واستجمعت نفسى ورحت أترقب :

– أتدرى ما الشئ الذى كلما أخذت منه ازداد ؟

لم أفكر كثيرا فقد عرفته من قبل ، قلت إنها الحفرة .. قال نجوت من الحفرة .

– أتدرى ما الشئ الذى إذا حرمته الماء عاش وكبر، وإذا سقيته مات ؟

– لم أجد صعوبة فيها كذلك فأجبت .. إنها النار .. قال : نجوت من النار .

وألقى السؤال الثالث متحفزا وقد ازددت تلهفا : ما هو الكائن الذى يمشى فى الصباح على أربع وفى الظهيرة على اثنين وفى المساء على ثلاث؟..

اختلط على الأمر .. لقد كنت أعرفه ، لم أعد أتذكر .. رحت أفكر.. بدا العرق غزيرا يطفو على وجهى وينسحب إلى داخل جسدى فتلعثمت قليلا فاهتاج وصاح : ألا تعرفه ؟ فأجبت فى خوف :

أعرفه جيدا لكنه غائب عنى .. زمجر وصاح ..

– وسوف لا تعرفه أبدا ...

وانطلق السهم الفضى من يده فأصاب الهلال النابت فى السماء ، فانقطع بصيص الضوء الذى كان ، تشكل المارد فى ضبابية من جديد

سرعان ما تبينت فيه شكل الفيل .. مـد زلومته نحوى .. لفها حول جسدى أحاول أن أدفـعه بكل قوتى .. تعـجز يدى ، لا تقـويان على فك قبضـته .. يزداد التفـافا .. أقاوم .. يـحملنى إلى أعلى .. تتمـدد الزلومة .. أشـعر أنى قاربت السـماء .. تركنى فجـأة . أهوى إلى الأرض ، تخرج الصـرخة منى قوية تفـزع زوجتى إلى جانبى تهـزنى عنيفـا .. تناديني .. استيـقظ .. أفتح عـينى فى صـعوبة .. تسـرع وتحـضـر لى كوبا من المـاء بينما أحـمـد يقف مشدوها فاردا كفيه نحو رأسى .. وأنا لا زلت أهوى.

مارس ١٩٩٧

عشــرة جنيــه

منذ أن أشيع الأمـر .. وتبدلت الحـال غير الحـال .. كانت الأمور تسـير عادية تماما ..(الأشيا معدن والعيال متعشية والولية متهنية والحال ميه ميه).. لم يكن يتصور أن شيئا يمكن أن يتـغير .. لم يرد على باله - أساسا - أن ثم شيئـا قـد يحدث .. أللـهم إذا وافتـه المنيـة .. فذلك مـن عند الله - البنت الكبرى قـد (خرطها خـراط البنات) وأصبـحت على وش جواز ... الولد الأصـغـر أصبـح على وش دخـول المدارس .. لا بد من عـمل شئ لهم .. عشـرون عامـا (يلحس) بلاط المكان .. حفظ بلاطهـا بلاطة بلاطة .. تلك البلاطة المكـسورة خلف الثلاجـة منذ أكثـر من أربعة أعوام .. هـذه البلاطة المائلة أسفل حنفية حوض الوجه الداخلى .. أصبـحت هناك صداقة حميمة بينه وبين كل شبر فى المكان . حقيقة قد بدأ ظهره يؤلمه فى الفترة الأخيرة .. إلا أنه عند نهـاية الشـهر عندمـا يقف لصـرف مرتب الشـهـر ، يتناسى كل الآلام التى ظهـرت والتى يمكن أن تظهـر ولم يكن الأمـر يقف عند مـرتب الشهر فقط ولكن (ربك بيرزقها) .. فلم يكن الأمر يخلو من عطل سباكة فى منزل أحد كـبار المحل ، أو أعـمال كهـرباء أو أى مهمـة يمكن أن توكل إليه لدى أحدهم .. ناهـيك عن تنظيف سياراتهم .. عشـرون عاما يأتى إلى المحل فى الثـامنة صبـاحا ، لا يتـركه قـبل الخـامسـة - إلا فى القليل النادر لمرض أحد الأبناء أو وفـاة أحد الأعمام - فـضلا عمـا لو لم يأت زميله فى الوردية الثانيـة ، فيكون لزامـا عليه أن (يطبق) (واهه كله بحـسابه) .. لم يكن قد جاوز العشرين من عمره يوم أتى المحل ..

كان حديث الزواج لم يزل .. إلتحق به عـامل نظافة .. وظل حتى اليوم

عامل نظافة - رغم معرفته وإجادته فى كل المهن الأخرى مثل (الجريل أو الكافتريا أو التجهيز) أو حتى تطاوعه نفسه أن يتناول الوجبه التى يصرفها له المحل .. بل كان يفضل عليها .. بقايا الطعام الرجوع أو طبق كشرى .. بينما يحتفظ بوجبته ليحملها إليهم فى البيت عندما يعود فى المساء فيلتف حولها الأولاد فى وجبة رئيسية تحمل الفرحة والشبع .. الأم والبنات الثلاث وآخر العنقود الذى طال انتظاره بعد البنات .. لم يكن يدور بخلده أن يهل عليهم الحاج عبد الحميد وما أدراك ما الحاج عبد الحميد .. قيل إنه بنك متحرك .. وقيل أنه لا يتحرك بدون (شنطة فلوس) .. وعندما هل بسيارته التى تختلف عن تلك السيارات (التعبانة) التى تعود عليها ويحصل على الجنيه من ورائها .. أظن أن الحاج عبد الحميد ، بمثل هذه السيارة لا يمكن أن يمد يده بأقل من عشرة جنيه .

عندما هل الحاج عبد الحميد كان الجميع فى انتظاره - صاحب المحل ومدير المحل ومحاسب المحل فى استقباله، وباقى العاملين كل فى مكانه لكنه ترك أذنيه إلى حيث يجلسون .. والبعض ترك قلبه عندهم وآخر ترك آماله ومستقبله .. ولم يتنبه أحد إليه عندما ترك الممسحة تهوى الى الأرض ووقف على البعد يتلصص .. لم يكن بطبيعته يهوى التلصص على أحاديث الآخرين .. غير أن القلق الذى أرقه طوال الفترة الماضية قد جعله على استعداد لفعل أى شئ كى يطمئن قلبه على المشترى للمحل .. وماذا ينوى .. وهل ما أشيع حقيقة أم أن الأمور ستستمر مع تغير المالك فقط .. لم يصدق أن ينتهى الأمر بكل هذه السهولة . كلمات محدودة وكأن الأمر كان محسوما من قبل .. هاله كم الأموال المكدسة بداخل الحقيبة .. تساءل

فى نفسه .. كيف يمكن عد هذه الأموال .. إن رزمة واحدة من هذه الرزم لا بد تفعل المستحيل .. لن تطرد بنت من البنات من المدرسة من أجل المصاريف .. سوف يأتى للإبنة الكبرى بدلا من العريس أربعة .. إلا أن بادرة خلاف كانت على وشك الوقوع أخرجته من عالمه عندما (تمحك) صاحب المحل فى عشرة آلاف جنيه .. غير أن الحاج عبد الحميد حسم الأمر فى بساطة وسلم بهذه العشرة آلاف جنيه .. فبدأت المباركات والتهانى .. سأل صاحب المحل الحاج عبد الحميد عن الوقت الذى سيبدأ فيه الهدد .. وهل سيقوم مكانه برج أم مجرد عمارة صغيرة .. وهل سيكون أسفله محلات أم جراج ؟!! كان كالمخدر أو المنوم وهو ينصت إلى هذا الحديث ، غير أن عقربا لدغه عندما أجاب الحاج عبد الحميد أن الهدد سيبدأ فى خلال أسبوع على الأكثر .. تنبه الجميع لوجوده عندما علا صوته (يا نهار أسود) .. بهت الجميع .. (تهد إيه يابيه) .. تكهرب السيد أشرف صاحب المحل .. نهره شاتما لاعنا.. حاول أن يزج به إلى الداخل .. تشبث بالأرض .. لم تفلح المحاولات فى الزج به بعيدا عن جلسة السادة ..انقبضت نفسه حينما تصور أنقاض هذا المكان.. عمر بأكمله قضاه فيه .. كيف يصبح هذا المكان حطاما.. حتى لو كان الحطام سيؤول إلى برج من عدة طوابق ؟.. وهل سيتم عمل محل آخر فى هذا البرج ؟ ... لا أحد يريد أن يؤكد ذلك .. حتى لو تم .. كم من الوقت سيستغرقه ذلك ؟ .. ومن الذى سيطعم الأولاد خلال هذه الفترة ؟ .. تجمع الزملاء من حوله .. حملوه بعيدا .. جلس على الأرض واضعا رأسه على كلتا يديه تدخل بعضهم فى محاولة لتهدئته :

- خايف من إيه .. م بيقولوا إن الحاج عبد الحميد حيعمل محل تانى أكبر من المحل ده ..

وتدخل آخر :

- دول كانوا بيقولوا إن المحل حيستمر .. والتغيير الوحيد هو تغير المالك بس ..

- غالب نفسه :

- يستمر مين ياعم .. وأنا سامعه بوداني بيقول هايهد .

- يا سيدى حتى لو هد .. ما هى التأمينات برضة حتعوضنا .

- تأمينات مين يا عم إنت كمان .. باين عليك مش عارف حاجة .. هو الحاج أشرف برضه كان بيسأل ولا يهمه موضوع التأمينات ده ..

ويتدخل آخر :

- أهو ربك برضه م بينساش حد ..

يتنهد فى عمق وهو يقول :

- ونعمة بالله .. فوضت أمرى عليك يا رب .

وكأن هذه الكلمات قد أنزلت عليه السكينة وانهمر عليه ماء بارد .. تحللت أوصاله .. شعر بشقله يزداد على الأرض .. غير أن نظرة مشاكسة متداخلة بين الرجاء والأمل لاحت فى عينيه عندما دخل عليه الحاج عبد الحميد .. وضع فى يده ورقة من ذات العشرة جنيهات .. لم ينطق بكلمة .. تركها وانصرف .. تبلدت مشاعره .. تحجرت أطرافه كم من الوقت مر عليه .. لم يدر ولم ينتبه إلا عندما أحس بطعم الملح على شفتيه من دمعة كانت قد إنزلقت ...

نوفمبر ١٩٩٦

محطة أم كلثوم



لما كـان مجـرد التعـادل فى هذه المباراة يـكفى للوصول إلى الدور قـبل النهائى ، فضـلاً عن الفوز لذا كانت مباراة مصـيرية ، ولولا ذلك ما فكرت فى الذهاب ، فكم من مبـارة محلية كنت أسـمع أنها فى غاية الأهميـة لهذا الفـريق أو ذاك ، مـا كنت أفكر أن أغـامـر بالذهاب .. وكم كنت أتعـجب عندمـا تصدر الصحف الـيوميـة وبها عـدة صفـحات - فضـلاً عن التنوية والصورة فـى صدر الصفـحة الأولى - فى اليـوم التالى لفـوز الأهلى على نادى المنيـا بـ ٣/ صفـر، أو عندما يفـوز الزمالك على نادى اسكـو واحد/ صفر .

إلى جـانب الحشـد الاعـلامى المكثف على مـدى عدة أيـام قبل المبـاراة وضرورة التواجـد الجماهيرى - فى هذه المـبارة المصيرية - ودور الجـماهير فى شد أزر ومساندة فريقنا القومى لعـبور هذه المباراة الصعبة ، كل ذلك لم يكن شـعورى وحـدى ، بل وجدتنى واحـداً من عشـرات الآلاف تدافعـوا جمـيعـا إلى إستـاد القاهرة منذ السـاعات الأولى من اليـوم، تحملنـا حرارة الشمس الحارقة فوق رؤوسنا ، وما كـانت أى أغطية ورقية أو جرائد لتمنع وهج الشـمس المتسلط كـأنهـا أشعـة من نار كـادت تذيب أمخـاخنا داخل رؤوسنا ، إضافـة على الحمـاس الملتهب والهـتافـات الصارخة الـتى كانت تسيل منا العـرق .. فكان يساعد فى ترطيب أجسـادنا - إلا أنه عندما يصل إلى الشفاه .. كنت أجد مذاقه ملحا - وقامت مباراة ومباريات بين جوانب المدرجات المختـلفة فى تأليف الأناشيد والشـعارات الحماسيـة ، إلى جانب الأغنيات الوطنيـة التى كثيرا مـا تتردد فى كل مناسـبة قـومـيـة (بلادى

بلادى بلادى .. شدى حيلك يا بلد .. والمصريين آهمه .. الخ) والتى أشعر أنهـا تزلزل أركان القـاهرة بأسرها ، وكـان منا من حمل مـعه الطبـول ومن حمـــل الدفوف، بينمـا كنت - مع غيـرى كثيرين - أحـمـــل (الراديو الترانزسـتور) حتى أتابع مع المعلق مـا يمكن أن يفوتنى رؤيتـه بوضوح على الطبيعة .

وكانت صفوف العسكر قد أخـذت أماكنها بين المدرجـات وعلى مدار الملعب بأكمله - فضـلاً عن الذين إستقبلونا بالخارج على بعـد مسافات من المدرجات - أما حول المستطيل الأخضر وعلى نفس مستوى الملعب فكانت النجوم الكثيـرة تلمع على الأكتاف ، بينما راحت فرقة الموسـيقى العسكرية فى وسط الملعب تعزف الموسيقات العـسكرية والالحان الوطنية والتى كانت تتابعـها الجمـاهير فى إنشادها فى أصـوات زاعقة صـخابة ، وكلما إقـترب موعد المبارة اشتعلت الجماهير حماسة وعلا هديرها.

مرت اللحظات عـصبية وحـماسية حـتى إنتهى اللاعبون من التـسخين وأجـرى الحكم مراسم توزيع جـانبى الملعب ومن يـبدأ بركل الكرة ، حـتى توقفت الانفاس مع صفارة البداية ، ومع كل هجمة لفريقنا تعلو الصرخات والآهات . ويعـود السكون الحذر والتـرقب الموجع مع كل هجـمة للفـريق الضيف ، وتمر اللحـظات العصيـبة متـأرجحة بين الصـمت والترقب، وبين الصـراخ وشد الشـعر وكلمـا مر الوقت إزداد التـرقب والقلق والرغبـة فى إحراز هدف يعيد للجماهير حماسها المتناقص وتوترها المتزايد .

وكلمـا إقتربـت الكرة من مرمـانا - وكثيراً مـا كان يحدث - أجـدنى أندفع فى محـاولة لإيقافهـا حتى زجرنى مَنْ أمـامى فإكتـشفت أننى دفعـته

بقدمى - بينما كانت الكرة على بعد عشرات الأمتار متى ، كما كادت تحدث مشادة بينى وبين جارى حين وجدت أصبعى كاديفقأ عينه ، بينما إحتدَّ على مَنْ خلفى لينبهنى لضرورة الجلوس فى مكانى حتى يستطيع أن يرى .. وفى حين كنت أضع (الراديو الترانزستور) على أذنى إكتشفت أنه فى الأغلب الأعم .كان تعليق المعلق يأتى بعد أن تكون الكرة قد تحولت عما يعلق عليه ، حتى ظننت أنه يراقب المبارة ويعلق عليها من قارة أخرى فكان تعليقه دائما يأتى لاحقا وتمضى الدقائق عصيبة والأهداف عصية ، فيؤكد جارى أن التعادل فى صالحنا .. كأنه قد يأس من إحراز هدف ، ولما لم يجد منى تعليقا يواصل : الخوف أن نندم على ما يضيع من فرص وحتى لولم نحرز اهداف .. فلنحافظ على ألا يدخل فينا أهداف .

وقبل لحظات من النهاية .. يشتد هجوم الخصم .. يكرس فريقنا القومى همه على الدفاع .. تتخرس الأصوات وتحتبس الأنفاس ... يسود الصمت المتوتر .. يصرخ الترقب فى الأعماق ، تتحرك كل الأقدام على المدرجات .. بدون تقدم .. تخرج العيون من محاجرها .. وتنخلع القلوب من مكانها .. يتحول عشرات الآلاف فى المدرجات إلى عشرة أشخاص .. يهمس واحد هناك فى محاولة لبث الروح و الحماس فى الفريق .. غير أن أحداً فى المدرجات لا يستجيب ، فيعاود الصمت .. ويصرخ آخر بكل ما فيه من قوة استرها يا رب .. فلا يجد جاره فرصة لإنتزاع ابتسامة ، ويوجه أحد لاعبى الفريق الضيف قذيفه من خارج الصندوق بعدة ياردات متجهة نحو مرمانا وتنشق الأرض عن واحد من الجماهير يقذف بنفسه طائرا لعدة أمتار .. وبالكاد تلمس أصابعه الكرة المتجهة نحو المرمى فيقذف بها خارج

الخشبات ليبعد هدفا محققاً وترتفع الصرخات ويعم الهرج .. وقبل أن يعى الجميع ما حدث ، كان رجال الشرطة قد أمسكوا به وتحلقوا من حوله .. أمسكوا به من ملابسه فكان شبه خارج منها .. وراح بعضهم يكيل له اللكمات والبعض يشوطه بالأقدام وجروه إلى خارج الملعب .. وسرعان ما إختفى عن الأنظار ، إلا أن أحداً لا يعلم اين ذهبوا به .

ووسط دهشة الجميع يطلق الحكم صفارة طويلة ويتجه إلى وسط الملعب محتسبا هدف لصالح الخصم .

ويعم الوجوم لحظات وتستبد الدهشة عندما يستأنف الحكم اللعب وتعلو المناقشات والخلافات بين صحة قرار الحكم وعدم صحته ، وصحة ما فعل المشاهد وعدم صحته ، وصحة ما فعله العسكر وعدم صحته ، من يقول أن اللاعبين قصروا ولم يبذلوا كل ما كان يجب بذله من جهد .. ومن قائل : أعطيناهم كل شئ حتى أصبحوا نجومنا وسادتنا ، فماذا تبقى حتى يؤدوا ما عليهم .. ويقول آخر أن اللاعب لاعب والحكم حكم والمشاهد مشاهد ، فيرد آخر أنه تصرف فدائى .. ولا شعورى، وأننى لو استطعت أن أفعل مثله لفعلت .

وتمنيت أن أعرف تعليق مراقب المبارة على ما حدث وعلى قرار الحكم .. إلا أنه .. دوما .. يأتى بعد أن تكون الأحداث قد وقعت .. ودائما يقولون أن قرار الحكم نهائى ولا رجعة فيه فماذا يفيد أى تقرير للأحداث يقدم ؟!

وتسرى موجة جديدة من الدهشة عندما يطلق الحكم صفارة طويلة ليعلن نهاية المباراة ، ويتسرب اللاعبون إلى حجرات خلع الملابس وسط صرخات واستياء الجميع ، غير أن أحداً لم يصبهم بسوء وينسحب الجمهور إلى الخارج بين واجم وساخط وساهم ، ولا أحد يعلم على وجه اليقين أين ذهب المشاهد أو أين هو الآن ، بينما جنود الشرطة كانوا قد استعادوا صفوفهم والتفوا حول الجماهير وخارج الملعب تحسباً لأى اعتداء - بينما الكلاب البوليسية بشكلها الضخم المرعب تخرج ألسنتها العريضة الطويلة .

وبينما لم أجد ما أرغب فى الحديث عنه مع أحد من الخارجين الواجمين ، تعتصر قلبى الحسرة ويضغط على أنفاسى وجدتنى أدير مؤشر (الراديو الترانزستور) أبحث عن محطة إم كلثوم .

مايو ١٩٩٦

القـــــرار



إنزاحت الحجب وتكشف كل مستور وكأن الإنتظار كان على حافة الهاوية .. أنظر فى قاعها فيخرج منها الجن والعفاريت وكأنها الساقية المهجورة فى قاع قريتنا .. وحينما تعوز الحاجة الإنسان .. يفتح خزائن حفظه .. عله يجد ما يقيل عثرته .. ولم يكن فى خزائنى سوى مجموعة من الهزائم المتتالية المتلاحقة حتى أنى فكرت يوما فى الانتحار .. وإمتلأ كل كيانى بالفكرة .. بحثت عن الوسيلة .. وضعت البدائل أمامى ورحت أقلب فى كل منها .. ترى أيها يكون أقل إيلاما ؟ واستقر الرأى على أن أجلس فى مواجهة القطار ساعة قدومه .. وقفت أنظر .. تداعت الرؤى والخيالات .. تمثلت لعينى حبيبتى فى خطوها المتئد .. لاح على ثغرها ظل إبتسامة .. غمرتنى نشوة أنستنى القرار .. ورحت أحلق بأجنحتى فوق أعشاش الشجر .. إختطفتها بعيدا عن الأعين .. تفككت كل العقد وبحت بما لم أبح به طوال السنين .. أمانى .. كنت لى حلما سألت العمر أن يلازمنى ، فأستيقظت .. وكان بيدى قبض الريح .. كنت لى دينا وعمرا كاملا .. كم وددت ألا ينقضى .. وهاأنذا أضع نهايته بيدى .. كان اسمك ينبوع حنان وطوفان مشاعر يجتاح وجودى حتى أستحيل فراشة مزخرفة الألوان .. وكان طيفك يعبر من أمامى .. لم أكن أستطيع التحديد .. أهو أنت التى تمرين أم هى الخيالات تتجسد وتدب فى عروقها الدماء فتتحرك وتتجسد .. وكان السراب يحسبه الظمآن ماء .. لم أكن أعرف منك .. سوى عينيك . قابلتك .. أمانى أحلامى .. وكان ذلك اسمك .. هو بين الناس أمانى .. وهو عندى أمانى أحلامى .. جلبتنى الحضرة الأثيرة فى

عيـنيك الواسعـتين .. كبـحر بلا شطآن .. وكم غـرقت فيـها وأنا لا أجـيد التجديف .. وكلما نزلت أبلل قدماى .. إنزلقت قدمى فى اليم .. يعلو الماء ويعلو .. يصل الركبـتين .. يصل إلى ما فوق الركبـتين .. إلى الصدر.. إلى الفم .. يغطى اليم الرأس.. يخنقنى الماء.. ولا من ينتشلنى .. سـواك .. فما أن تصـيبك نظراتى المنغـرسة فـى أعمـاق أعمـاقك.. وما أن يصـرخ النهم الفاضـح فى عينى حـتى يأخذك سمـت الجد .. يضيـع ظل الإبتسامـة على وجهـك.. تشيحـين عنى.. تسرى خـلايا النمل فى أطرافى.. تنهمـر أمطار الدنيا فوق رأسى..أبتلع الطين..أختنق من الطين..ويعلوصوت القطار على البعد..ويبدأ إرتطام عجلاته فى قضبانه يصل إلى مسامعى.. يُحدث - على البعد - توقيعات رتيبة تشبة هدهدات أمى حين كانت تريد نومى ..

كم وددت يا أمى أن أحكـى عن أمـانى .. ولكن كـيف يا أمى .. وأنا أعرفك .. قد تظهـرين الفرحة .. بينما فى أعـماقك الخوف ، بل الرعب لم أجـرؤ يوما أن أفـاتحك فى شـأنهـا ، فقـد كنت أعلم مـدى خـوفك من أن يأخذنى الآخرين ، حتى لو كانت أمانى ، فـمنذ أن مات أبى وأنا بعد صغير وكمـا حكيت أنت لى ، لم أكن قد جـاوزت بعد الثـالثة ، قـالوا أنه مات ، وقلت أنت أنه قـتل .. قتلوه .. بعـد أن إعتقلوه ، ورفـضت يا أمى الزواج ، عشت - كـما تقولين - لى ورغم مـا تقولين لا أنسى لطماتك العنيـفة على وجهـى - حقيـقة - كـنت تسارعين وتأخـذيننى فى أحضـانك وتغمـرينى بقبلاتك وأنت تبكين إلا أنك كنت تعودين إلى لطمى على وجهى كلما بدا منى ما لا يـروقك ، اذا لعبت مع الآخريـن ، فقد كـان اثما ، اذا مـا تأخرت بالمدرسة ، فقد كان كفرا ، اذا ما فكرت فى السير مع أقرانى حين العودة فقد

كان خطيئة . اذا - حتى - حلمت بأبنة الجيران ، فقد كان فسوقا ، فى المدرسة الإبتدائية كنت أخدعك يا أمى أقول أنى لا ألعب مع الآخرين بينما كنت أراهم من بعيد..أقترب منهم ، أقف لأتفرج عليهم وهم يلعبون، ألعب معهم وأنا واقف فى مكانى ، تتحرك عضلاتى دون أن تتحرك ساقاى، وعندما كانوا يحتاجون إلى - كمالة عدد - كانوا يدعوننى .. ولم أكن أتكلم ، كنت أجرى وأهرب لم أكن أحكى ذلك لك ، وفى المدرسة الإعدادية بدأت أسير معهم ، ولم أكن أيضا أخبرك ، حقيقة كنت أظل طوال الطريق بلا حديث ، وكثيرا ما كانوا ينسون وجودى بينهم ، وكم حاولت الحديث مثلهم إلا أنه فى كل مرة كانت الكلمات تتوه قبل أن تصل الشفاه ، فى بعض الأحيان حاولوا اشراكى فى الحديث ، وحاولت كثيرا إلا أنه فى كل مرة كانت المحاولة تفشل حتى أن بعضهم لم يكن يجد غضاضة فى تسميتى (بالبنت المكسوفة) ، نعم يا أمى كنت فى نظرهم البنت المكسوفة وعندما وصلت الجامعة لم تكونى قد تغيرت ، ولم أكن قد تغيرت ، وإزداد حنقى على نفسى ، فحاولت الثورة ، إلا أن حتى هذه الثورة لم تكن لتطفو حتى تجدك فى طريقها .. فتخمد وفى الجامعة كانت هدى النجار رفيقة المجموعة ، فتاة مرحة تنتقل معهم فى كل مكان حتى خارج الجامعة ، تصورى يا أمى فتاة تخرج مع الشبان خارج الجامعة وتجلس معهم كواحد منهم فى طرقات الجامعة على الأرض ، ولم تكن تهتم بى رغم نظراتى النهمة .

إلا أنه فجأة وجدتها تخصنى من بين الآخرين ببعض النظرات ولكم تلاقت نظراتنا وكالعادة تلعثمت وعلت الحمرة وجهى ، أهرب منها أبتعد

بعينى بعيدا ، وكانت تصر أن تلاحقنى ، تحاول انتزاع لقاء الأعين رغم هروبى ، ولم أكن أعلم ماذا تريد ، ولم أكن أعلم ماذا أريد ، ولم نكن أمانى أو أمانى أحلامى قد ذابت فى جليد النسيان تماما رغم بعد المسافات وطول الأمكنة ، وكلما اقتربت منى هدى تحاول محادثتى حتى تذوب الكلمات فى الحلق قبل أن يحملها الهواء اليها ، فلا تجد طريقا لها ، انتحت بى جانبا على القرب من المجموعة ، همست لى بالموعد .. أراك السابعة مساءا على رصيف الكورنيش بجوار كوبرى الجامعة ، لم تكن تستشيرنى ، كانت قد أخذت قراراً لا يقبل المناقشة ، لا بد أنها قرأت فى عينى الطلب بأعماقى ، لا بد أنها قرأت فى عينى الجواب فلم تمهلنى وانصرفت ، تضاربت بأعماقى الأحاسيس .. أيمكن أن أذهب إلى هذا المكان وفى هذه الساعة ، وماذا يمكن أن أقول لأمى ؟! وماذا يمكن أن أقول لهدى ؟ وماذا يمكن أن تريد هى منى ؟! وفى هذا المكان ، لقد سمعت كثيرا عما يدور هناك ولكن ماذا يمكن أن أقدمه لها ؟! أأستطيع شيئاً ؟! إستهوتنى التجربة، كنت فى أعماقى سعيدا لقد اختارتنى أنا من بين المجموعة . لا بد أنها وجدت بى مالم تجده فى الآخرين ، وأخيرا - يا أمى - وجدت التى تنتشلنى إلى ذلك العالم المجهول ، قضيت اليوم بطوله ولم أكن قد استمعت إلى شئ من المحاضرات ، ولم أكن قد سمعت شيئا من كلامك يا أمى ولست أدرى إن كنت قد جاوبتك عن أسئلتك اليومية المعتادة أم لا ؟! ماذا فعلت بالكلية ، من قابلت ، مع من تحدثت ، مع من سرت فى الذهاب ومع من مشيت فى العودة ، تخافين على يا أمى - أعلم ذلك- ولم أكن فى عينك سوى طفل - أعلم ذلك أيضا، ولكنك لو علمت اليوم ماذا أنا فاعل

لسلمت يا أمى بأنى قد كبرت ، سأقـابل فتاة ، هل تصدقين ؟! وقد قررت
- نعم يا أمى قررت أتصدقـين ؟! قررت الذهاب إليها ، وشعـرت بركبتى
تتخطبان وأكاد أسمع دقات قلبى .. إضطراب عنيف يهزنى وأنا أقترب من
كوبرى الجامعة ، كانت الساعـة تقترب من السابعة ، بالضرورة هى لم تأت
بعد ،كان حتما أن آتى قبلها حتى يمكن أن استجمع قواى، أن ألملم بعضى ،
إلا أن ارتباكى تزايد وإضـطرابى تضاعف، وجدتهـا فى انتظارى ، إلى هذا
الحد ، لقد عشت سنين أتطلع إلى أمانـى من بعيد ، أحدثها طويلا وأجلس
قبـالتها مـحلولة عقدة لسـانى ، وفى النهاية كنت أجدنى أحـدث نفسى ..
أجاء اليـوم الذى تسبقنى فيـه فتاة إلى مـوعد .. وهى التى تنتظرنى .. لا بد
شيـئا فى الكون تغير .. جـمعت شتات أفكارى وركـزت كل وجودى كى
تثبـت قدماى فى الأرض وتـكفان عن الإهتـزاز . إستجـمعت مـا يمكن أن
يكون فى خبـرتى حتى أقول .. مسـاء الخير .. لم أعلم إن كان صـوتى قد
خرج أم لا ؟! بادرتنى هى .. مساء الخيـر .. لماذا تأخرت نظرت فى ساعتى
.. لم تكن قـد بلغت الـسابـعـة بعـد .. غاصـت الأرض بى وهى تمد يدها
لتتأبطنى وتسـير بى مسرعة نحو الطريق الخـارجى .. إلى أين تسير بى تلك
الفتـاة .. أليس هذا هو طريق الكورنيش ؟! الم تكن تريدنى لـهذا المكان ..
تنادى على تاكسى .. تشـجعت وسألت إلى أين تسـير بى .. ولم تنظر إلى
وهى تخبـرنى أنه يجب ترك هذا الطريق وهذا المكان فى أسـرع وقت ممكن
.. لم أعلم لماذا .. ومـاذا تريد .. استـسـلمت لها .. بيـنما التـاكـسى يقطع
الطريق نحو المهندسـين .. صعدت بى إلى بيتـها .. لا يوجد به أحـد سوى
فتـاة فى العقد الثـانى يبدو أنهـا الخادمة .. سـألت وأنا أدارى دهشتى .. ألا

يوجد أحد .. وكـأنها تؤدى مهمة عاجلة وإن بدا عليـها بعض الإرتياح عن ذى قبـل قالت كل واحـد فى عمله .. دخلنا حـجرة المكتب .. وعلى كنـبة صغيرة جلسنا .. إلتصقت بى .. تباعدت عنها .. إقتربت أكثر .. تدافع الدم غزيرا فى عروقى ..إرتفاع حرارتى أنسـتنى برودة يناير .. أكاد أشعر بلهيب يوليو كلمـا إزدادت إقترابا .. ظلت تتحدث وتتـحدث .. فى كل شئ وفى لاشئ .. وأنا لا أعى مما تقول شيئا .. فقـد كنت فى عالم آخر .. أغالب فيه نفـسى... أبحث عن شئ أقـوله .. ولم تكن الكلمـات تخرج .. إخـتلطت أنفاسهـا بأنفاسى وكلما إنزحت بعـيدا إقتربت منى أكـثر .. ولم أعلم على أى أرض أقف عندمـا إنغرست شفـتاها فى شـفتى .. لم أعى شـيئـا ..إنها تقبلنى إذن .. شدنى إحساس غريزى نحوها .. مددت يدى إليها .. جذبتها .. تشبثت بها .. علا الوجيب بداخـلى ... وجدتها تحاول إبعادى .. لم يعد مجـال للتراجع .. تدفـعنى بعيـدا .. ليس الآن .. أتشبـث بها .. أقبلـها من حيث أصل اليهـا .. تحاول الإفلات .. لا تقوى .. تكاد تصـرخ و .. تتخدر أوصالـى .. ويعاود النمل سـريانه فى أطرافى .. وتتدلى شـفتى . بينمـا هى تنظر إلى وإلى نفـسهـا فى ذهول .. ولم أتبين – حينهـا – ماذا كـانت تعنى عندما تسـاءلت – أبهذه الـ .. أنت صـحيح (خايـب) .. وشد ما غـمرنى الحزن عندمـا علمت أن هذه الكلمة عـلى ألسنة المجموعـة فى صبـاح اليوم التـالى .. وشـد مـا كـان حزنى عندم علمت أن مـؤامـرة كـانت تدبر عند الكورنيش .

وسدت أمامى كل المنافذ .. شعرت أنى لست على الأرض .. لماذا إذن أعيش .. ليس هناك مـفر من النهاية .. فكرت فى الإنتـحار .. إمتلأ كـيانى

بالفكرة ، بحثت عن الوسيلة .. وضعت البدائل أمامى ورحت أقلب فى كل منها .. ترى أيها يمكن أن يكون أقل إيلاما .. واستقر الرأى .. على أن أجلس فى مواجهة القطار ساعة قدومه .. نعم .. إستقر الرأى أخيراً .. وقفت أنتظر قدومه .. تداعبنى الرؤى والخيالات .. تمثلت لعينى كل الصور وإنزاحت الحجب وتكشف كل مستور .. رحت أداعب خيالاتى وأنا أنتظر قدومه .. أخذتنى غيبوبة الذكريات التى دائما تعاودنى .. ولم أتبين مرور القطار إلا بعد أن كان قد مر بكامله .. نظرت إلى مؤخرته فى شبه حسرة وذهول .. إنسحبت خائبا .. لا بد أن أمى تتساءل الآن عن أين أكون .

مايو ١٩٩٢

الإنتقـــــام

عديد من المشاعر والمشاعل تتوقـد فى الأعماق .. تتداخل الرؤى وتغيم الرؤية .. لا لون محدد تستطيع العين تحديده .. يتأجج الصراع فى الأعماق .. مزيج من الرغبة فى الإنتقام والرغبة فى الإرتواء .. مزيج من نغمات الموسيقى الحالمة تعزفها أوتار الأعضاء ، فيتولد الحنين جمرا يشع ضوءا خابيا ، ضوء لا يريم ولا يغيم .. حنين دافق يدفعه للمحاولة من جديد .. لماذا كانت هذه المرة ترفض ، وهى التى كانت البادئة - فى غير تصريح - بالدعوة ؟! أى شئ تراه دفعها لهذا التحول ؟! أتراها لم تصل إلى مرادها .. أم أن هناك من استطاع التسلل إلى تلك الشقوق المفتوحة فسد المنافذ وحجب الرؤى ؟! كم جلسا معا على جانب النيل يتصفحان صفحاته البواحة الفواحة ، يستقر لها أبيات الشوق ويدغدغ حواسها بأنغام الهيام .. كم عاشت معه اللحظة ،،تداعب أوتارها بهزات أنامله العازفة على مكامن الأحاسيس ، ويتحول مجرى النهر فى إنسيابية ونعومة لا يدريه ولا يمسك بتحوله ، فى شبه غيبوبة يفيق على ملمس النعومة المرمرى .. تسهب فى الحديث عن اتساق الأعضاء ، وانسجام الألوان ، ويتداخل الإحساس فيذوب المحسوس بالملموس .. لكن هاهى الآن قد وافقت أخيراً - بعد الإلحاح . على جانب النيل يعود اللقاء من جديد .. لكن لن يكون الحديث شعرا ولن يكون الهمس نغما ، لن يتحدث عن الوجد والشوق مرة أخرى .. لا لن يقول .. أحبك .. لن ينهزم بعد الآن .. لن يكون خائبا بعد الآن .. لقد عرف ما تريد .. فلِمَ يصر على ما يريد ؟! ينتزعه الشوق من التحليق .. ينظر فى ساعته .. الخامسة والنصف .. أليس هذا هو الموعد .. لا .. هناك

دقائق لم تزل على وصولها .. كم تمنى أن يتخلص من هذه العادة .. هي لا تأتي إلا بعد موعدها .. وهو - دائما - يأتي قبل موعده .. لأن الانتظار يقلقه .. تدور الهواجس في نفسه .. يصبح الوقت طويلا قاتلا .. لكن قلق الموعد لا يدع مجالا للإنتظار .. يتعجل الوقت .. يسأله الإسراع ، لا يطيق صبرا على الإنتظار في موعد اللقاء يكون أكثر اطمئنانا ، بل يشبع رغبة ملحة دافعة إلى حيث اللقاء .. لن يتكلم اليوم .. سيكون الفعل هو السيد .. سوف لا يعطي وقتا للحديث أو العاطفة .. سيدهمها بجبروته الذي كان مخبوءا كالجني داخل الصندوق .. سيفتح الصندوق ، ويخرج الجني .. سيفرج عن الوحش الكامن في أعماقه .. سيعزف لحنا جديداً .. سأكون اليوم رجلا .. بل وحشا يعلمها كيف تتعامل الوحوش .. لا .. بل سأجعل إحدى يدي تبحث عن الوتر الصادح متجهة من أعلى إلى أسفل ، بينما تبحث الأخرى من أسفل إلى أعلى .. وعندما يلتقيان عند المنتصف سأقيم حفلا راقصا على لحن جنائزي راقص ، يتساقط الوجد فيه صريعا .. يتمايل الشبق فيه سريعا .. لن أعزف أي نوع من الموسيقى .. بل سيكون خوار وزئير .. سيكون حطام وتكسير .. سأفرض عليها واقعي الجديد .. واقع الغاب وحيوانات الغاب . كيف يفترس أسد الغاب أنثاه .. لن تطول الجلسة على النيل .. لا بد سأصحبها إلى شقتي .. يعلم أنها قد تمانع .. لكنه - أيضا - يعلم أنها تمنع الرغبة في المزيد من الإلحاح .. سيكون هناك انسان آخر .. سأكشف عن ذلك القميص البرتقالي الموشى بالدانتيل الذي طالما أشعلت إليّ حنينه .. سأنزع ذلك المشد الذي طالما أوقدت نيران شوقي إليه في عرض مفعم بالبذخ البخيل .. سأمرغ شفتي على تلك البرتقالة

الصارخة بالنداء الذى طالما أبانت جزءا فأهاجت الشوق إلى الكل، الوقت يمر بطيئا .. القلق يعتصره ..

هاهى تظهر من بعيد .. أنها خطواتها .. طلعتها المشعة نبضا وحضورا .. تزداد دقات قلبه .. يشعر بلسع الحرارة فى وجهه .. يكاد يلمح ظل ابتسامة على وجهها فليستعد .. لن يضعف اليوم مرة أخرى .. البلوزة بأزرار .. إذن سيسهل فكها .. الجيب طويل قليلا .. لكنه يسهل رفعه .. الوحش الرابض فى الأعماق يئن ويزأر .. إنها هى .. بحضورها المزلزل المشع بالدوار .. تدور رأسه قليلا .. يحاول التماسك .. تصافحه .. تذوب يده فى يدها .. ينسحب وجوده ليسرى فى عروقها .. ينسحب وجودها ليصنع خيمة تغطى وجوده .. ينحسر العالم من حوله .. يتلاشى .. يجلسان .. لا زال يمسك بيدها .. يمسك يدها بكلتا يديه .. يشع من عينيه شوق وهيام .. يشع من عينيها ضوء ساحر مذيب .. يذوب فى وجودها .. يحملها الخيال إلى الأفنان .. تعزف عصافير الوجد لحن اللقاء .. يسحب يدها بكلتا يديه .. يرتشف قبلة من يدها .. يتلاشى وجوده .. يحلق فى آفاق المتعة والارتياح .. تتسرب منه الكلمات .. يجد نفسه يردد .. إنى أحبك ..

نوفمبر ١٩٩٦

النقطـــــة

تجمعت حبات المطر المتدافعة فى شلال هادر ، فأزاحت أمامها المتاريس والقلاع والزروع والضروع ، تطايرت الجرادات واحدة فواحدة مخبئة قرص الشمس ، فجردت الزروع من أوراقها والأشجار من أغصانها . اشرأبت أذان الكون تتسمع .. تدافعت الشهب فى السماء تتلصص .. تقلقلت الأرض، وأرسلت بعض الحمم تتشمم .. أرسل الحكام رجالهم للوقوف على ما يحدث . ظلت الصفحة جرداء تشكو الوحدة والفراغ فقد توقفت النقطة فى أول السطر آبية أن تتشكل فى أى من الحروف ، فقد أنهكها الصعود والهبوط والدوران والتشكل . دائما هى التى تفعل ، ثم فى النهاية ، لا أحد يشعر بها . حقيقة أنها فى بعض المواضع قد تكون مؤثرة وضرورية إذ بدونها قد ينقلب الحال ، فتصير التاء باء أو تتقلقل فى موضعها فتصير الباء نونا ، لكنها فى النهاية تصير فى تيه الحروف . لا ينطق أسمها فى أى من التكوينات ، أو يرد ذكرها فى أى من التشكيلات ، أصابها اليأس .. إلى متى تظل رسما بلا نطق ، إلى متى تظل جسما بلا روح . فكان لا بد من وقفة تعلن فيها عن نفسها ، تقول أنا هنا .. إلى متى تتجاهلوننى وأنا التى بحركتى يتشكل كل شئ ، أنا التى بصعودى وهبوطى، باستقامتى وتعرجى تكون الكتابة وتكون القراءة ، فتكون الرسالة وتكون الإجابة ؟ أنا التى أشكل الحركة ، أنا التى أكون الاسم والفعل ، فلا رسم ولا فعل بدونى ، ورغم ذلك فى جب التيه والنسيان تلقونى ، صنعت الصفحات تلو الصفحات حتى صارت كتبا ومجلدات ، وفى برد الشتاء تستدفئ بتجمعها على رفوف المكتبات ، وأظل أعانى صقيع البرد والنسيان

.. اهتـزت كل أعضـاء النقطة حنقا وغـيظا .. فار الدم فـى عروقـها كـمدا وحقـدا .. شعـرت بطاقة جبارة تزلزل كـيانهـا.. شعرت أنهـا على وشك الانفجار والتفتت .. وويل للحروف من تفتتها .

تدخل الحرف بعد أن شعر بمدى الخطورة التى تكونها إذا تفتت النقطة ، حاول تهـدئتها مسـتخدمـا وقار الحكمة التى تفـرضها عليه الأخـوة وفارق الحجم :

وما الجـديد يا عزيزتى الصغـيرة ؟ لقد نشـأنا هكذا وسنظل هكذا ، هذا هو مقدورنا ودورنا . زفرت النقطة فى غيظ ونفاد صبر :

وما الذى يفرض علينا ذلك ؟ لقد ضقت ذرعا ولم أعد أحتمل ، أحمل على كاهلى كل السطور ولا أحد يعترف بوجودى .

– من الذى لا يعترف بوجودك أيتها الأخت الصغيرة ؟ إنهم يعرفون أنه بدونك لا يكون الخط أو الكلمة أو ..

– وما يجدينى أنهم يعرفون .. مجرد المعرفة ليس كافيا .

– وما الذى تريدينه إذن ؟

– الاعتراف

– وما الفرق ؟!

– إنه فرق بعيد .. مـسافة كبيرة بين المعرفة والاعـتراف .. الاعتراف هو الإقرار بوجودى ..

– لكنك بالفعل موجودة .

- دون أن يعترف بى أحد كما الإبن غير الشرعى يوجد لكنه يفتقد اعتراف الوالد مع أنى لست ابنة ولست غير شرعية .

- لكنك لست الوحيدة فى ذلك .

- أعلم أن كل النقط مثلى .. ولكنهم استكانوا وجرفهم كر السنين . استكانت النقطة فى بداية تكوين الإنسان - رغم حيويتها - وبعد أن صار إنسانا.. لم يكد يذكرها. استكانت النقطة فى قاع المحيط - رغم قدرتها - فضغط عليها وجوده ولم يعد لها ذكرا . استكانت النقطة فى أسفل الجبل - رغم ضرورتها - فسحقها ثقله فلم يعد يذكرها أحد .

استكانت الـ...

- مهلا عزيزتى .. إذا كانت كلها استكانت ورضيت بعيشتها .. فما الذى دعاك تعلنين العصيان ؟!

أخذت النقطة نفسا عميقا وتنهدت ، صعدت التنهيدة من أعماقها بكل المرارة وصمت السنين وكأنها تزيح جبلا من فوق صدرها وقالت : تفتحت عيونى وسئمت التجاهل والنسيان .

أشفق الحرف على النقطة من حرارة التنهيدة وما تحمله من لهيب الإحساس فأراد أن يطفئ نار غضبها : كل شئ بالعقل أختى الصغيرة ، إن عصيانك لا بد يخل بنواميس الصفحة ، إن كل شئ يمكن الوصول إليه بالتدبر لا بالغضب والتوقف ، أشعر بمدى معاناتك وانسحاقك تحت وطأة الكلمات التى أحيانا تجثم على صدرك ،ولكن لا تنسى أنها أيضا-فى بعض الأحيان - تحملك على الأعناق فاندفعت النقطة فى هياج ونفاد صبر:

ليس محبة يا عزيزى الكبير ولكن كى تبدو فى النهاية ذات معنى .

استطرد الحرف مستمرا فى ارتداء لباس الحكمة :

ولا تنسى أنك أيضا بدونها قد لا تكونين شيئا . هب أنك وقفت وحيدة كما تقفين الآن .. هل يصبح لك معنى ؟

فاندفعت النقطة : أخيراأصبح الآن لى معنى عند التشكيليين .

- ولكن كم يفهم ما يعنيه التشكيليون ؟

فكرت النقطة قليلا وساد صمت قصير لم يلبث الحرف أن قطعه بعد أن شعر أنه على وشك الاقناع: تعالى نتعاون معا . أنا بما أملك من حركة ، وأنت بما لديك من سكون ، نصنع موسيقى الغضب الذى تعلنينه ، فيسمعك القاصى والدانى ، نطلب من الحاضر أن يعلن الغائب بدورك وأهميتك فيكون لك ما تبغين ، أعلن تعاطفى معك ، وهنا يكون صوتنا واضحا . أما أن تقفى أنت هكذا فى بداية السطر ، فإن أحدا لن يشعر بك ولا يعلم بمدى غضبك وعلام عصيانك .

* * *

تفكرت النقطة قليلا وبدا أن الحرف قد استطاع إقناعها بضرورة التحرك والجريان على السطر . بدأت فى حركة وئيدة تتشكل فى شبه دائرة أسفل السطر ، تماسكت وامتدت على السطر قليلا ثم صنعت شبه دائرة أخرى أعلى السطر فكانت عينا ، تمددت مرة أخرى على السطر ، صعدت إلى أعلى ثم عادت وتمددت إلى أسفل فصنعت لاما . نظرت النقطة إلى ما صنعته لم يرق لها شبه الدائرة الأولى وأن تكون منكسة إلى أسفل ، مدت

يدها وعدّلت وضعها حتى أصبحت إلى أعلى ، شعرت بالارتياح قليلا ، بحثت لها عن موضع . استقرت فوق الدائرة الأولى فأصبحت فاء ، نظرت فوجدت أنها شكلت شيئا . أعجبها منظر إلتصاق الحروف واعتلائها قمتها .. دب فيها الحماس فملأت السطر الثانى .

أصبح كل حرف فى السطر الثانى أسفل مثيله مباشرة من الصف الأول. أعجبتها الحكاية . راحت بهمة وحيوية تملأ السطر الثالث فالرابع .. الخامس .. العاشر ، امتلأت الصفحة ، أعجبها التناسق والتلاحم . نظرت إلى الصف أفقياً ، وجدت تلاحم .. نظرت إلى السطور رأسيا .. وجدت تناسق . شعرت بالحركة تدب فى الحروف . أخذت الحركة تتزايد ، بدأت تسمع أصواتا ، الأصوات تتعالى تتعالى . أصبحت الأصوات هديرا . بدأت الصفحات تتجمع ، أتت المجلدات متعثرة فى ثقل حجمها . شدها ما يحدث . اعتلت نقطة أخرى إلى جانبها فوق الدائرة الأولى ، فثقلت نهاية اللام الأخيرة واستوت على السطر . أصبحت دالا . نظرت النقطة إلى المعنى .. لم يعجبها التشكيل أو المعنى ، أزاحتها بعيدا فعادت اللام إلى وضعها وعادت القاف فاء ، راحت النقطة تهتف ، رددت النقاط الهتاف ، أخذ صوتها يعلو ، تدافعت الصفحات تردد الهتاف ، ابتسمت المجلدات.. تخلت عن وقارها.. بدأت - فى تتابع - تردد مع الصفحات ، ذلك النداء التشكيل المتشكل من الفاء والعين واللام .

ابريل ١٩٩٧

رجـــع الصـــدى



ورغم أنها تعلم جيداً أنى لا أحب الإلحاح ، وأمقته ، بل ربما يتولد لدى العناد اللعين ، إلا أنـها لا تكف مطـلقاً عن الـطلب ، كررت لـها مـراراً أن تتخيـر الأوقات التى تفتح فيـها هذا الموضوع ، إلا أنها تصـر دوماً أن تلقى بأحجار كـلماتها على ميـاه أعماقى الساكنة فـتحدث دوماتها المتـحلقة من حولى ، غير أنها تبدأ كبيـرة ثم تضيق .. تضيق .. تضيق حتى تعتصرنى فى بؤرتها فـتتقـاطر بقاياى حنقاً وألماً ، تتـحرك براكين الغضب فى الأعـماق ، يخرج الـديناصور الذى يطاردنى فى نومى من عـمق الأزمان فـيسحـقنى ، تفـزعنى النقطة التى أكونهـا إلى جـواره ، أكتـفى بصب اللعنات على كل الأشياء ، أغرس نفسى فى بحـر الأحداث، توابع الزلزال المدمر فى اليابان ، تصل بالوفيات إلـى ما يتجاوز نصف المليون ، أصـوات تكسر العظام تحت الحطام تكاد تخـرج من بـين سطور الجـريدة فى يدى ، تســحـقنى ، تهـرب المعانى متـناثرة ، وتفقد الأشياء وترابطـها، مصرترفض التوقـيع على تجديد معاهدة منع إنتشار الأسلحـة النووية ، وإسرائيل ترفض الإنضمام ، أمريكا تضـغط ، تنحبس الصـرخة فى أعـماقى بعـد أن تدربت على إحكام غطاء المرجل ، تصر على ضرورة البحث عن مخرج جديد ، فالشوق يحرقها .

- ألم نجرب كـل الأطباء المشـهورين وغيـر المشهـورين ؟ ماذا نسـتطيع فعله بعد ذلك ؟

- سمعت عن من يستطيع علاج الحالات المستعصية ومنها حالتنا .

- أبعد أن صار الحال غير الحال ، تطلبين الذهاب إلى دجال .

- إنه ليس دجالاً . جربه كثيرون فى حالات مختلفة .

- لكنه فى هذه الحالات بالذات لا يؤتمن .. الضوء لا يتولد إلا بطرفى التيار . حتى هذه النظارة اللعينة هى الأخرى غير قادرة على توصيل الحروف إلى بؤرة العين .. أتراها هى التى تعاندنى ، أم انغلاق بؤرة المخ هى التى أفقدت الأشياء ترابطها ؟ اخلع النظارة فربما استطعت أن أقرأ بدونها ، الحروف متآكل نصفها .. م ج ل س، الأم ن ، يوافق على .. إستمرار .. العراق .

صفحات الجريدة أصبحت بيضاء .. ألا زالت العقوبة مفروضة ؟! بل صفراء بل لقد كسى سواد الحروف وتداخلت أخبارها .. لم أعد أميز على وجه التحديد ما لونها أعيد مسح النظارة وأعاود .. لا أرى شيئاً .. أفرك عينى بكلتا يدى .. تستوى الرؤية بها وبدونها .. لم أعد أبصر شيئا .. لقد هربت عيناى دون أن تخبرانى ، إنقطعت الأحداث التى تربطنى .. أيمكن ألا يكتفى الديناصورات بمهاجمتى فى المنام فقط ؟ ألم تنقرض الديناصورات فى الحياة ؟ لماذا تعاود مهاجمتى من جديد .. بل الآن يمكن أن تهاجمنى فى يقظتى أيضا .. استوى عندى النوم واليقظة . الآن أصبحت فريسة سهلة لها .. الآن أصبحت أسير مشكلتها الأبدية .. مشكلتها ؟! بل إنها مشكلتى أيضا ، ومن قال أنى لا أريده مثلها ، بل أكثر منها ، ولكن .. ماذا عساى أن أفعل ؟ لم نترك طبيباً إلا ترددنا عليه ، إلا أن أحدًا منهم لم يستطع أن يحدد من منا الجانى ، وأصبح كل منا مجنى عليه ولكن .. لن أستسلم لخرافاتها ، أيعقل أن يذهب مثلى إلى الدجالين ؟ أأستجديه من الخارج ؟ ! إن لم يكن منى .. فلن يكون الـ .. الخدر يتسلل إلى يدىّ أكاد

لا أشعر بهما .. أنهما تتساقطان .. الجريدة تقع على الأرض .. تتباعدان .. تهربان .. حتى تلكما اللتان أعتمد عليهما فى كل شئ ؟ وكيف أستطيع أن أحيا بدون الذراعين ؟ ألم تكف عيناى ؟ الجميع يتحالف معها ، يريدان ألا يكون هناك ما يشغلنى عنها ..لكن التحدى هو الذى يميزنى ، فلأكن قادراً على تحدى المستحيل .. ولن أستسلم .. لا زلت قادراً على فعل شئ ، حتى ولو كان مجرد متابعة الأحداث .. كل الحوادث والأخبار لها روائح ، حقيقة قد تختلط الروائح وتتداخل فى كثير من الأخبار ، فمثل هذا يحدث فى الجريدة ، كذلك الذى حدث فى عملية التوضيب فى الجريدة .

فتداخل خبر تجديد الحظر المفروض على ليبيا مع خبر اضراب نقابتى المهندسين والأطباء ، حتى أن القارئ لم يستطع التحديد من أين يبدأ الخبر الأول أو أين ينتهى الخبر الثانى ، غير أن التدريب على تشمم الأخبار والحوادث لا بد أن يساعد على التمييز والتحديد ، ليتنى كنت قد تعودت على ارتياد المقاهى أو التسكع فى الشوراع ، ربما كنت قد وجدت وسيلة أهرب بها ، لكنى منذ متى كانت ليت وليتنى تفيد فى شئ ، وكم نصحنى أبى ألا أضيع وقتى فى قراءة الجرائد وأن ألتفت إلى دروسى ، فقراءة الجرائد لا تطعم فما ولا تروى ظمأ ، غير أنك يا أبى ربما أنت الذى دفعتنى لمتابعتها دون أن تدرى . . فطول الحديث عن الطعام والشراب ، ربما هو الذى دفعنى للبحث عنهما فى الوظائف الخالية ، فأدمنت متابعة القراءة .. بل دفعنى لأن أكره الطعام والشراب من طول ما نالنى من جراء البحث عنهما . وكم تمنيت وتساءلت .. ولماذا لم يخلقنا الله كالملائكة ، يمكن أن نعيش بلا طعام أو شراب ؟؟ آه .. لقد نسيت ، ألم يعينى أنفى المزكوم دوماً

عن تمييـز روائح الأطعمـة !! .. لقد أصبح هو الآخر بلا فـائدة .. اذن فلا حاجـة لى به هو الآخـر .. لا .. لا.. فقط فليبق فى مكانه .. لم أعـد قادراً على المزيد من التـمرد والهـروب .. فليـبق فى مكانه حـتى للمحـافظة على الشكل العـام ..اذ .. انتظر .. أرجوك .. حـتى أنت يا أنفى المزكوم لم تـعد تسـمح لى .. أتعطلت كل السـبل ؟ لا ..لا يهم فـلأكن قـادراً على تحـدى الصعـاب وقهـر المستـحيل . إن كل مـا ينشر فى الجـرائد يذاع فى المذياع ، ومازالت لى أذنان ، فلأواصل بهما .. أنهض من مقعدى ..اللعنة من جديد ..ما الذى حـدث؟! حتى قـدماى تعانـدانى وتعلنان العصـيان ؟ لا تريدان مطاوعـتى .. لا بد أن هناك انفـصالاً حـدث بين مركـز المخ وبين الأطراف فتفككت الأوصال ..لم أعد أشعر بوجودهما.. تتفككان .. تتخلعان عنى ، أتوسل .. أرجوكمـا، لا تتركانى .. فقط أبقيا ، ولـيكن حفاظاً على الشكل العام ، بدونكمـا سأتحول إلى كـومة لا حراك فيـها .. لا فائدة .. لقـد هربتا أيضا أكـاد أسمع وقـعهمـا يدبان فى هرولة غاضـبة بعيـداً عنى ولكن ..لن أستـسلم لا بد أن أقاوم فلأذهب إلى المذيـاع مثلما الدودة . لم يزل مـعى ما أستطيع به فعل شئ ، ألم تزل معى أذنانى ولسانى ؟ إذن ما زلت قادراً على العيش ، انه يكفى على الأقل لالتهام وتحـريك الطعام ، أليس بالغذاء يعيش الإنسان ؟! وها هو المذياع .. وهـا هى الأخبار من جـديد . ولكن أى إذاعة تلك التى تتحدث عن الخيار النووى ؟ أى خيار يعنى ؟ النووى أو النوى .. وما تراها العـلاقة بين الخيـار وبين النوى ؟ .. لقد نسـيت أيضا .. ألم يكن مركز المخ هو أول من أعلن العصـيان ؟ أذن فكيف يمكن الربط بين الأشياء ..بين الأسـباب والمسـببـات ؟ فمـاذا يفيـد السمـاع أيضا ؟ انخـلاع عنيف بوجهى .. أنـادى .. حتى أنتمـا .. ؟! بالله عليكمـا .. ابقيا .. ولـيكن فقط للشكل العام .. يا الهى الجميع أعلن العصيان والتمرد .. الجميع يهرب بعد

أن فقد وظيفته ، يبدو أنه محكوم عليّ أن أظل أسيرها ..لا بد سأستجيب لإلحاحها ..لكن.. ماذا تبقى منى ؟ ألا زال هناك ما يمكن أن أفيد به؟! أيا كانت الأمور، فلتحملنى ، كومة تتنفس .. فإنى ما زلت أعيش ، وما زال الديناصور يطاردنى .. وماذا عساى أكونه الآن أمامه ؟ .

لا بد أنه لن يكتفى بالمطاردة فى المنام .. لكن .. أليس هناك من بديل لهذا الدجال ؟ إننى مازلت قادرا على الفعل .. فلنذهب إلى الأضرحة .. فلندعو الأولياء ، لا بد أنها ستوافق على هذا .. فكم صنعت لهم وقدمت اليهم .. كما أنه لا يزال معى لسانى .. فلنرفع الدعاء معا لديهم .. لكن على ألا أرهقه كثيراً ، لسانى ، فلأختزل مهمة تحريك الطعام ولأبقة فقط للدعاء ، وليكن ، أين ذهبت هى الآن ؟ ألم تكن هى التى تطاردنى بالحاح فى كل حين ؟ أنادى عليها .. لا من مجيب .. أرفع صوتى .. لا انعكاس له .. أين تراها ذهبت ؟ أتراها هى الآخرى قد ضاعت .. أتراها قد هربت منى أيضاً ..إن الهواء يحمل آنات متباعدة ألم يعد حتى من جدران تعيد لى الصدى ؟ أصرخ .. أصرخ .. الديناصور يطاردنى .. أصرخ .. يبرك فوق عظامى .. أصرخ.. تئن عظامى .. أص .. ر ...خ، تتقطع أنفاسى ..تتلاطم صرخاتى بهيكل الديناصور المحتوينى ..

ظل صدرى يتردد .. غير أنى لا أدرى .. أهو رجع الصدى لصراخى ؟ أم أناتها فى ذلك المكان الذى لا أستبينه ؟

أم أنها لفرط وهنها تبدو كصرخة طفل وليد ؟؟

مارس ١٩٩٥



المخلصـــــــة س

زوجى الحبيب ..

لست أدرى لماذا أناديك الآن بزوجى، رغم ما كان ورغم كل هذه السنين .. بل لست أدرى لماذا أكتب إليك الآن .. فقط شعرت برغبة فى الكتابة وأن كنت لا أعلم حتى الآن .. إن كنت سأجرؤ على أن أبعث إليك بهذه الرسالة أم سيكون مصيرها التمزيق وسلة المهملات .. كل ما أدريه أنى مسوقة للفضفضة والبوح ، ولم أجد سواك مدفوعة إليه للبوح بمكنون نفسى .. فإذا كنت الوحيد فى هذه الحياة الآن من كشفت له عن نفسى طائعة .. أفأقل من أن أكشف لك عن هواجس نفسى وما يعتريها من أعاصير وهل ستصلك معانيها أم تظل حبيسه النفس لا تصل إليك مثلما لم يصل إليك مكنون نفسى ودوافع تصرفاتى فيما مضى ..

زوجى .. أو يا من كنت زوجى ..

أكاد أشعر أن جرحى قد بدأ يندمل ، وآلامى قد بدأ أنينها فى الخفوت والذوبان ..حقيقة لا أستطيع القول بوضوح أن معاناتى قد زالت تماما .. لكنه بصيص الأمل فى استئناف الحياة بعد أن بدأ شتاء العمر يفرش برودته وقسوة وحدته على أيامى .. الأمر الذى يدفعنى للبحث عن المرفأ والأمان أمام هزات الزمان .. وقد يكون فى البوح والمصارحة بعض الارتياح - رغم ما نازعتنى نفسى عليه كثيرا - فدعنى أحدد لك تجربتنا، كاشفة عن ما يكون قد غمض عليك فهمه أو لم أستطع التعبير عنه فيما قبل ..

ولتحكم من جانبك هل استطعت أن تتفهمها كما كانت أم أن ما حدث كان لا بد أن يحدث مهما كانت النتائج ..

فلا زلت أذكر يوم أن تقدمت لطلبى..لم تكن العلاقة قد توطدت بيننا ، رغم ظروفنا المتشـابهة، حيث نشأنا مـعا فى الإسماعيليـة، لكن أحدا منا لم يكن يعرف الآخر .. ورغم تواجدنا فى كلية واحدة ..

بل ربما لم أكن أحمل لك أكثر من القليل من المعرفة والكثير من الآلام والمعاناه، بين جرح لم يندمل وأسرة تتكون من سبعة أفراد، تتكدس فى شقة من حجرتين أثنتين وصالة صغيـرة ، توزعت أماكنها على الموجودين حسب نوعيـاتهم .. وحتى هذه لم نكن لنحـصل عليهـا لولا وساطة أحد مـعارف أبى بالقاهرة .. نحن الذين كنا نسكن فى بيتنا ونؤجـر الباقى، وكانت الشقة تضم خمس غـرف كبيرة بخـلاف الصالة التى كانت بمثابة ثـلاث حجرات ناهيك عن السـقف المرتفع إلى نحـو أكـثـر من أربعة أمـتـار .. لكن هكذا حكمت الظروف، ولـم نكن نملك حق الإخـتيار أمـام ما نشاهده ومـا نعلمه مما يعانيه أمثالنا من المهـجرين من مدن القناة .. وعندما تقدمت أنت لـم أكن فى احـتـياج لأى ضغط من أى من أفـراد الأسرة لأقبل الـقشة الطافـية على سطح المحيط التى يتعلق بها أمل الوجود .. لا أقول الحياه .. وإنما أعنى فقط الأمل فى الوجود .. فلم أكن قد تخلصت من تلك الرؤية التى لا تغيب عن ناظرى ولا عن وجـودى لمنظر (سـامح) حين كان إصـرارى لرؤيتـه .. بل لرؤية أشلائه حين استخرجه أفراد الدفاع الشعبى من تحت الأنقاض ..

ربما تسـألنى عـن من يكون (سـامح) .. ولك الحق فـى ذلك .. بل استطيع أن أتخيل وجـهك الآن، وقـد انبـسـطت عليـه أسـارير الدهشـة

والتساؤل ورغم ما كان بيننا والسنين التى قضيناها معا لم أحدثك عنه ..
يبكى البعض بينما أنا صامته .. وقد تسلط علىّ شعور بأن سامح قد مات
من أجلى ..ملأنى الغل والألم وغمرتى الغيظ والكمد .. تمنيت لو أمسك
بألف أو يزيد من هؤلاء (أولاد الكلب) .. سأمزق أجسادهم واحدا واحدا
وألقى بقطع أجسادهم للكلاب الجائعة بينما أجلس لأتشفى وانتقم ..
شعرت أن ثأرا فى رقبتى لا بد أن أؤدية.. ولم نكد نصل إلى القاهرة حتى .
كنت قد قررت ضرورة العودة إلى الإسماعيلية .. لا بد أن أرى سامح ..
النظرة الأخيرة .. ورغم أنه كان هناك استحالة لخروجه حيا .. إلا أن
بصيصا من الأمل فى المعجزة كان يطل برأسه من ثقب فى عمق الإيمان ..
وفى الصباح الباكر، وقبل أن تبزغ شمس التاسع من يونيو، كنت أبحث عن
أى وسيلة تحملنى إلى الإسماعيلية .. خلسة ممن بقى معى من أسرتينا ،
لكنى لم أجد شيئا سوى عربة حربية تحمل بعض الجنود مع بعض الأغذية ،
توسلت إليهم واستحلفتهم بكل عزيز .. أخبرتهم أن والدى فى أحد
مستشفيات الإسماعيلية ويعذبنى عدم رؤيته للوداع الأخير .. فحالته
خطيرة .. رق لهم حالى.. خبأونى عن الأعين .. فلم يكن مسموحا
بالذهاب إلى هناك لأى سبب - إلا بتصريح حربى .. وما أن وطأت قدمى
أرض الإسماعيلية حتى جريت كالمجنونة فى الشوراع غير عابئة بما يتهددنى
من أخطار الغارات أو الشظايا التى يمكن أن تصيبنى فى أى لحظة ، وغير
ملتفتة إلى تلك البيوت التى تحولت إلى خرابات وبقاياها تقف كأشباح
تصفر فى الخلاء المرعب الرهيب ، حتى وصلت إلى منزلنا .. أقصد تلك
البقايا من الأنقاض التى كانت منزلنا .. كان أفراد الدفاع الشعبى ورجال

الإسعاف لم يزالوا يبحثون عن أجساد بشرية تحت الأنقاض ، وقفت مرعوبة تصطك أوصالى وتنقبض روحى ويطبق كابوس قاتم على صدرى فيحتبس الهواء داخل شعيراتى .. حتى وجدتهم يحملون أشلاء آدمية .. إقتربت فى خوف .. وكلى يرتعش .. وينبض بتسارع .. أكاد أسمع دقات قلبى .. قلبى يخرج من بين ضلوعى .. وصرخت صرخة مدوية ، فقد استطعت أن أميز فى الأشلاء وجه سامح ..عيناه مفتوحتان تنظران إلىّ فى إصرار رهيب .. بعدها .. لم أدر ما الذى حدث ..لم أتنبه إلا وهم يسوقوننى من داخل أحد المستشفيات بالإسماعيلية .. وسمعت أنهم يريدون مكانى لحالات أشد خطورة .. وحملنى أتوبيس كبير ضمن المتخلفين من التهجير ومن أصبحت حالتهم تسمح بتسفيرهم إلى القاهرة والمدن الأخرى الكثيرة ..

ظللت ربما نحو شهر أو يزيد .. لا أنطق بشئ .. يحدثوننى فأنظر إليهم نظرات شاردة لا تحمل أى معنى .. استعطفنى أبى .. واستحلفتنى أمى أن أنطق .. طلب منى أبى أن أبكى ، غير أن الدموع كانت شيئا عزيز المنال .. فكرت كثيرا ان أوفى بوعدى معه .. بضرورة أن ألحق به .. غير أن بقية من إيمان كانت لا تزال تشع فى أعماقى وتؤكد أن ذلك كفر بالله ، وتوقف الزمن بى رغم أن الشمس لم تكف عن الدوران .

وحاولوا أن تستأنف البلاد مسيرتها .. فأعلنوا عن موعد جديد لإمتحانات الثانوية العامة التى كنا نستعد بها قبل أن يقع ما وقع فى الخامس من ذلك الـ يونيو التعيس ، وبدأت أفتح كتبى الدراسية .. وما كنت أفتح صفحة من كتاب إلا وكانت صورة سامح تتجسد أمامى .. تملأ صفحة

الكتاب .. تغطى على كلماته .. تستحيل الصفحة إلى بياض كامل لا سطور فيها .. ولم أدرك حتى اليوم كيف نجحت فى هذا العام ..

مطلقا .. وكيف كان لى أن أحدثك عن وجودى مع غيرك وأنا فى عصمتك ؟ . ولكنى الآن وفى معرض البوح والفضفضة أستطيع بحرية أن أحدثك عنه بلا حرج .. خاصة بعد ما أكاد أشعر به من تغير فى مسارات الشعور والأحداث .

إنه هو سبب رفضى للذهاب معك إلى الإسماعيلية .. بل هو الحائل الذى وقف بيننا طوال ما قضيناه معا .. إنه ماضى أيام .. طفولتى وبدايات شبابى ..بل ومستقبلى الذى بنيت فيه عش حياتى وأمل وجودى .. فى الشقة المواجهة لنا مباشرة .. تفتحت مداركنا معا ونحن نلعب على السلم وفى مدخل البيت .. كم لعبنا العريس والعروسة ..ونحن لا ندرك معنى اللعبة .. وكانت لم تزل لعبة .. ولعبناها وقد بدأنا نعى أبعادها عندما بدأت أمى تحول بيننا وبينها خارج البيت .. كنا نلعبها بأشكال مختلفة .. كنا نلعبها حينما كانت لا تمر مناسبة إلا ويقدم إلىّ فيها هدية .. حقيقة كانت هدايا بسيطة .. ربما لا تزيد عن وردة .. لكنها كانت تعنى لى أشياء كثيرة وتترك فى نفسى أثرا بعيدا فتزيد ارتباطنا وتوثق علاقتنا ..

كنا نلعبها عندما كنت أتلكأ عند عودتى من المدرسة حتى يعود هو .. أو يتلكأ هو حتى أعود أنا .. ولا ننصرف إلى بيوتنا قبل أن يطبع على وجنتى قبلة كانت تعنى الحياة بالنسبة لى .. كنا نلعبها عندما أقسمنا معا على رغيف خبز مع بعض الملح أقتسمناه معا على ألا نفترق إلا بالموت .. يومها تمنى هو أن يكون موته قبل موتى .. وتمنيت أنا أن يكون موتى قبل

موته .. ولك أن تلاحظ أننا كنا نتحدث عن الموت، ونحن لم نبدأ الحياة بعد .. إلى أن إتفقنا على أن يكون موتنا معا .. حتى لو كان تحت عمارة منهارة .. حتى لم أعد استطيع التفرقة .. أينا الذى خان .. أهو لأنه هو الذى سبقنى .. أم أنا التى تأخرت ... يومها إتفقنا على ألا ننجب أكثر من ولد وبنت .. أسمينا الولد أحمد وأسمينا البنت دعاء .. كأن كل منا كان دعاؤه إلى الله أن يجمعنا فى عش واحد ، فإن استجاب الله فإن كلينا سيحمده على استجابته وقبوله الدعاء .. لم أكن أرى الحياة بدونه .. ولم يكن يرى الحياة بدونى .. ولم أعرف فى الحياة أحدا سواه .. ويوم أن هبت الغارة فى اليوم الرابع وكنا بالتحديد فى الثامن من يونيو اللعين .. وقبل أن تزحف الشمس نحو الغروب .. كان كل من فى البيت قد استقر فوق أمتعته على السيارة الكبيرة التى كانت ستحملنا إلى القاهرة حيث الإقامة الإجبارية الجديدة .. وفجأة تذكر سامح أن الخاتم الذى كنت قد أهديته إياه ليس فى إصبعه .. يومها .. إستمهلهم قليلا حتى يحضر شيئا قد نسيه .. ولم يكد يدخل البيت حتى دوت صفارات الإنذار .. وقبل أن ننتبه .. كانت دانة جبارة قد أحالت البيت إلى كومة من أنقاض، وتطايرت الشظايا التى أصابت الكثيرين من أسرتينا ...بين قتيل وجريح .. ولكم كان مؤلما ذلك المنظر البشع الذى إلتصق بقاع عينى أمداً بعيداً .. الكل يصرخ .. الكل يتألم .. ذراع هنا .. وساق هناك ..دماء تسيل على الأرض .. حملت سيارات الإسعاف أكواما من لحوم البشر وأرغموا الباقين على استكمال مسيرة التهجير .. يومها ألجمت المفاجأة لسانى وتحجرت الدموع فى عينى .. إتصلت فتحتى عينى بفتحتى الإذن ..وكنت من بين من أرغموهم على

استكمال مسيرة التهجير .. تشبثت بالأرض ورفضت الإذعان .. حملونى عنوة إلى السيارة للإسراع فى السير قبل أن تهب غارة أخرى ويزيد عدد الضحايا .. وفى الطريق كان الذهول يخيم على الجميع ..

أهل حقيقة قد أجبت فى الإمتحانات دون أن أدرى، معتمدة على البقايا من أيام ما قبل الخامس .. أم أنهم أرادوا مساعدة المهجرين فتجاوزوا فى التصحيح .. المهم .. دخلت الجامعة .. وفى السنة الثانية تعرفت علىَّ رغم أنك كنت فى السنة النهائية لكن معرفتك ببعض زميلاتى من أبناء الإسماعيلية كان فاتحة للتعارف - كما لا بد تذكر - لم يكن بى رغبة فى التعرف عليك أو على غيرك ، فكلما كنت أنظر إليك أو إلى أى رجل .. كنت أرى سامح .. وكلما كنت أحدثك كنت أحدث سامح .. وقد لا أكون مبالغة حتى إن قلت لك أنه عندما تقدمت إلىَّ - وكنتُ كالمسوقة إلى ذبحها - كنت أرى فيك سامح .. ولا أظننى أكذب إن قلت لك أننى - حتى بعد أن تزوجنا - عندما كنت تأخذنى إلى حضنك لم أكن أجد فيك غير حضن سامح، ولم أكن أحس فى شفتيك بغير شفتى سامح .

لذلك .. ولذلك فقط .. عندما قررت العودة إلى الإسماعيلية بعد التخرج رفضت بشدة وتركتك تعود وحدك .. حتى عندما خيرتنى بين العودة أو الفراق .. فضلت الفراق على العودة ليس كرها فى الإسماعيلية .. فكيف أكره نبضى .. ولكن فضلت البقاء هربا .. إذ لا بد أن كل بيت مهدم سيكون تحته بعض من سامح .. وفى كل طريق فيها بعض من آثار أقدام سامح .. بينما فى القاهرة الضياع .. التوهان .. الزحام القاتل ..

أما الآن وبعد ما حدث فى أكتوبر الماضى أشعر الآن أنى أستطيع أن أتنفس .. أشعر أنى على استعداد لمواجهة بقايا الإسماعيلية .. أشعر ببصيص الأمل يبزغ من تحت الأنقاض .. أشعر أن أملا جديدا قد بدأ يبين وأنه لا بد ستزال الأنقاض ويعاد رصف الطرق ..

وبينما يعتصرنى صقيع الوحدة وبرودة الغربة .. أشعر أن ملامح وجهك قد بدأت تبين .. إنى أستطيع رؤيتك .. أريد أن أتحسس وجهك بكلتا يدى .. أشعر أننى قد حققت بعض ثأرى .. أنى أستطيع العودة معك إلى الإسماعيلية .. فكم يشملنى إحساس بأن الدنيا تستيقظ من نومها وتحاول فرد ذراعيها كى تقذف بالكسل بعيدا .. وأجدنى مدفوعة أن ألقى بنفسى بينها .. فحينها لا بد ستطبقهما لتحوطنى ..

لذا .. أمد يدى إليك .. فهل تقبلنى كى نبدأ من جدد .. ؟؟

المخلصة س

القاهرة فى ١١/١١/١٩٧٣

نوفمبر ١٩٩٦

قصص المجموعة

تحت الطبع

* أفراخ الحمام تكسر جدران البيض والبكارة

المجلس الأعلى للثقافة.

* المجموعات الأولى

" دراسة فى القصة القصيرة "

* معالجة الرواية المصرية لأحداث ١٩٦٧

قائمة إصدارات
مركز الحضارة العربية

روايات ..

إينارو	د. على نهمى خشيم
تحولات الجحش الذهبى	لوكيوس أبوولوس ترجمة د.على نهمى خشيم
مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
الخروج إلى النبع	محمد قطب
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
الدميرة	د. عبد الرحيم صديق
حمدان طليقاً	أحمد عمر شاهين
ترانزيت	ليلى الشرينى
مشوار	ليلى الشرينى
الرجل	ليلى الشرينى
رجال عرفتهم	ليلى الشرينى

قصص قصيرة ..

مطرية الغروب	جمال الغيطانى
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط
حرب بلاد نمنم	خيرى عبدالجواد
حكايات الديب رماح	خيرى عبدالجواد
حرب أطاليا	خيرى عبدالجواد
سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
الممنوع من السفر	شوقى عبد الحميد
شجرة الخلد	سعد القرس
شهقة	سعيد بكر
أيام هند	سيد الوكيل
فرد حمام	يوسف فاخورى
خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوه
الفوز للزمالك والنصر للأهلى	عبد اللطيف زيدان
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
لا أحـــــد	عبده خال
أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازى
الشاعر والحرامى	عزت الحريرى
رشفات من قهوتى الساخنة	محمد محى الدين

شعر ..

سراب القمر	فاروق خلف
إشارات ضبط المكان	فاروق خلف
قصائد حب من العراق	البياتى وآخرون
أول الرؤيا	إبراهيم زولى
رويدا باتجاه الأرض	إبراهيم زولى
نصف حلم فقط	عماد عبد المحسن
منيـــا تنادينـــا	طارق الزياد
صلاة المودع	صبرى السيد
من فصول الزمن الرديء	درويش الأسيوطى
غربة الصبح	محمد الفارس
الغربة والعشق	مجدى رياض

الآراء الواردة فى الإصدارات لا تعبر بالضرورة عن آراء يتبناها المركز